الرسول الإنسان وأعلام الإسلام

تراجم الاعلام

بقلم

أنور الجندي

١٩٥٥

دار

الأعلام للطبع والنشر

٨٩ شارع السلطان حسين

بالقاهرة

تراجم الاعلام

سلسلة من الرسائل تتناول حياة
الأعــلام من الناحية النفسية

بقــلم
أنور الجنــدى

- أضواء على حيـاة الأدباء المعاصرين .
- أعــلام الأسلام .
- أعلام من الشرق والغرب .
- بلا أمــل .
- يوميات عطارد .
- جولات .
- أضواء على تاريخ الإسلام .
- نزعات التجديد فى الأدب المعاصر .
- تقويم عطارد .

الرسول الانسان

وأعلام الإسلام

فى سنة ١٩٤٠ كنت أعيش فى الريف . وقد وجدتنى متجها بكليتى إلى دراسة حياة الرسول وأعلام الإسلام . وقد انتهى بى ذلك إلى وضع كتاب لم يطبع ـ وإن كنت قد نشرت منه بعض فصول فى جريدة القاهرة التى كانت تصدر فى طنطا ـ إذ ذاك وجريدة الافكار بعنوان « مدارج الاسلام فى التاريخ وأثر محمد فى الانسانية »

وفى سنة ١٩٤٧ بدأت أعاود هذه الدراسة بصورة أخرى وفق أسلوب جديد بعد أن اتسعت آفاق الفهم والدرس أمامى فاصدرت كتابا عن « شمائل الرسول » وفى عام ١٩٥٣ ـ وفى شهر رمضان بالذات حيث تصفو الروح ـ كنت أشغل أمسياتى بدراسة حياة طائفة من أعلام الإسلا وحياة الرسول فى مقدمة هذه الدراسات وفق أسلوب جديد من النظر إلى حياة الاعلام والعظماء فى ضوء علم النفس الحديث . وقد كتبت دراسة عن « الرسول » فى ذلك العام ، خالفت فيها أسلوب كل من تناولوا هذه السيرة . ومضيت أحقق الجانب الذى أغفله الكثير من تناولوا السيره . وهو الجانب النفسى الشخصى الخالص . وكيف كان النبى أنسانا يأخذ حظه من الحياة ويتصرف فى الأمور كما يتصرف البشر . وكان فى صميم طبيعته البشرية « الرجل » الذى يتناول الأمور بعقله ويقضى فيها بتجربته الخاصة ـ إذ أوتى هذه الشمائل الحلوة فى حديثه واتصاله بالناس وخلقه وسماحته وقد رأيت أن أجلى هذا الجانب الرائع الذى يتمثل فيه النبى فى صورة « إنسان » بعيداً عن ميدان الوحى والرسالة والدعوة .

ولقد ظل الكتاب يتحامون هذا الجانب ويدورون حوله ولا يقتربون

منه ظنا انه مما لايجوز تناوله مع انه فى حقيقته أروع جوانب شخصيته ، صلى الله عليه وسلم .

ولكنى بعد أن أتممت هذه الدراسة ترددت فى نشرها . ونشرت الكتاب الأول من « أعلام الاسلام » فى مارس سنة ١٩٥٤ بدونها . ولكنى اليوم وقد أجزت دراسة طائفة أخرى من أعلام الاسلام ، فقد رأيت أن أخرج هذه الدراسة إلى حيز الوجود .

والواقع أن لى مع « تراجم الاعلام » قصة ، فقد شغفت بهذا اللون من الدراسة . حتى أصبح العمل الأدبى الأول عندى الآن . فى خلال السنوات الخمس الاخيرة كان اتجاهى الفكرى قد تبلور فى دراسة التراجم والسير والشمائل الانسانية فى حياة الابطال والاعلام . وقد أوغلت فى دراسة عدد كبير من الشخصيات فى تاريخ الاسلام والعرب والشرق والغرب . . فى القديم والحديث .

تناولت الدراسة عدداً كبيراً من الاعلام ولكن حفنة فى حـــدود ثمانين شخصية هى وحدها التى استلفتت نظرى وبهرتنى وملات نفسى عجباً وتقديرا . لعل جوانبها الغنية الحافلة بالمواقف والأحداث هى التى أغرتنى بها . أو لعل تشابها نفسيا بينى وبينها هو وحده الذى كان مصدر أعجابى . أو لعلى وجدت فى هذه الشخصيات ألوانا من البطولة وصوراً من العظمة كنت اتمنى أن أمثلها على مسرح الحياة .

وقد قسمت هذه التراجم على رسائل منها (أعلام الاسلام) ــ وقد أصدرت منها حلقة قبل هذه الحلقه التى بين يدى القارىء [1] ــ (وأعلام من الشرق والغرب) ــ وستصدر فى الحلقة القادمة ــ وأعلام الادب

(١) سنعيد طبع (أعلام الاسلام) الحلقة الاولى قريبا لنفاذها .

الانسانى — وستكون تالية لهذه . و (تراجم على طريقة المقابلة) وهى مقابلة لكل علمين يلتقيان فى ميدان واحد و بينهما تشابه معين سواء فى العمل الاسم أو الاتجاه . وهناك كتاب (وراء كل فنان امرأة) .

ولكن كيف وقفت عند هذا اللون من التراجم الأدبية التى تعنى أول ما تعنى بالمعالم النفسية والحياة الخاصة وأثر المرأه والحب فى أدب الكاتب أو عمل العظيم ؟ مع انى جربت جميع ألوان الكتابة السياسية والاجتماعية والنقد الادبى .

الواقع انى بدأت أكتب وأخطو الخطوات الأولى للقلم عام ١٩٣١ ، وإنى لاذكر أن أول موضوع خطة قلمى كان عنوانه (المثل الأعلى) .

وفى خلال هـذه السنوات الطويلة . قرأت كثيراً . اشتاتا مختلفة من فنون القصة والأدب والتراجم والتاريخ والعلم والفلسفة قراءة مضطربه لا ينظمها هدف أو مذهب أو دراسة . وإنما هى للثقـــافة واختزان المعلومات وتسجيل الملاحظات وتدوين النقاط الهامه . ومضيت فى طريق الأدب . ثم تنكبته إلى التاريخ . ثم اتجهت إلى الدين . ثم تحولت إلى دراسة معالم السياسة والثورات والاحداث الكبرى فى تاريخ الإسلام وتاريخ الغرب ورأيتنى اقف طويلا عند (البطولات) .فى حدود المثل الأعلى..وبهرتنى مواقف رائعة تجلت فيها عظمة الشخصية عندما تحقق نصراً او تحول تاريخا . او تدك قديما باليا . او تمزق ماضياً مهلهلا .

وفى خلال سنوات طويلة وجدتنى اتجه حثيثاً إلى التراجم ودراسة الشخصيات فاقرأ طويلا لبلوتارك واميل ليدوفج وفرويد وادلر ويونج ومكدورجل ورأيتنى شغوفا بالسير والتراجم ودراسة الشمائل والبحث وراء خفايا الشخصيات الانسانية اللامعة ومعرفة العوامل الخفية وراء مظاهرها البراقة وتعقب الاسباب

الدافعة إلى المجد . والمقاصد التي تكمن وراء الاهداف . والحقائق التي تستتر وراء الالفاظ والتصريحات . والاسرار التي تطويها هذه النفوس إلى العواطف والاهواء التي تجول في أعماق هذه الشخصيات التي لمعت وبرزت واحتلت مكانها . وحفرت اسمها في شجرة التاريخ الضخمة .

وهكذا وجدتني في محيط التراجم ورأيتني اقرأ لكتاب التراجم وأدرس أسلوبهم وطريقهم .

ولعل « البطولة » هي التي كانت دائماً تجعلني أعجب بهذه الشخصية أو تلك أو لعله شيئاً معينا آخر في كل شخصية . ولكني على كل حال بهرتني شخصيات معينه . كان الدافع الذي جعلني أحبها ما أعطتني من معاني أو من أشعاع . فليس سبيل عنـــدي للتفريق بين شخصية وشخصيه . ولعلي هنا قد ترجمت لشخصيات ربما كانت أقل من غيرها أثراً في محيط التاريخ الاسلامي ولكني لم أ كن قد قيدت نفسي مطلقا بهذا القيد إنما أنا أريد شخصية الانسان ذاته ، هذه الشخصية التي تملأ نفسي بقوتها وتدفقها وحوادث حياتها . الشخصية الغنية الموسرة المتعددة الجوانب والحلقات . التي لها قصة ، ونقطة تحول ، وقفة والتي يكمن وراءها سر . ويفيض من حولها غموض . هذه الشخصيات التي تبهرني وتملأ نفسي وتجعلني أحبها وأبحث عنها وأدور ورائها . .

لقد أحببت تاريخ الاسلام منـذ بعيد وبهرتني أضواءه وقد رأيت في طريق اليه شخصيات جباره قوية رائعة ، كان على أن أعيش معها وأدرس حياتها وأعرف عقدة تحولها أو الحادث الذي أثر في مجرى اتجاهها . ولقد هزتني هذه الشخصيات حقا . . ولكني لم أرد أن أقدمها في أسلوب التعريف الذي يحيط به تاريخ ومولد ! فأنا لا أكتب عن هذه الشخصيات للقارىء الذي لم يقرأعنهـا من قبل كما أنني لا أريد أن أعطيه مايجد في كتب التاريخ . ولكني أعطيه سرائر روح وملامح نفس وشمائل شخصية . أعطيه هـذا

الجانب الذى لاتعطيه كتب التاريخ .

لقد حاولت أن أرسم لهؤلاء الاعلام صورة نفسيه : صورة من أعماق الحياة الخاصة . ولا ادرى هل وفقت إلى ذلك أم لم اوفق وإلى أى مدى مضيت فى هذا المضمار .

لقد تناولت فى كتابى «أعلام الاسلام» الذى صدر عام ١٩٥٤ شخصيات عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز وخالد وأبو ذر والحسين والحسن البصرى ومالك وأبو حنيفه والشافعى وابن حنبل والنجارى وابن خلدون والغزالى وابن تيميه وصلاح الدين وجمال الافغانى .

وفى هذا الجزء نتناول بعد شخصية الرسول : سعد ابن أبى وقاص ومحمد بن القاسم والجنيد وطارق والحجاج والمنصور وأبو مسلم وصقر قريش والرشيد ومحمد الفاتح ونور الدين وعقبه بن نافع وابن حزم و بيبرس وأبو عبيده والناصر والحاجب المنصور وعز الدين بن عبد السلام والمنذر بن سعيد ومعاوية وكلها شخصيات لامعة باهرة ذات اثر . وفى حياتها قوه وتدفق وحركة وهى نماذج لعشرات بل لمئات من الشخصيات ذات الأثر الكبير فى تاريخ الاسلام والتى لا تخرج فى اتجاهها او مظهرها النفسى عن هذه الشخصيات الأربعين التى تعد من معالم الشخصية الانسانية فى محيط الاسلام وتاريخه .

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى محاولة دراسة الشخصية الاسلامية وفق هذا الأسلوب الحديث فى دراسة التراجم والسير وإلى اللقاء فى الكتاب القادم « اعلام من الشرق والغرب »

غرة ربيع الاول ١٣٧٥ — أنور الجندى



— ١ —

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليه »

فى أسماء القادة والأبطال اللامعة ، أسماء إذا ذكرت وتحدث عنها المؤرخون . وقفوا أمام تصرفاتها وقفة التقدير والإعجاب ثم قالوا « إنما هؤلاء أنبياء يأتيهم الوحى من السماء . » ومن هذه الأسماء اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولا شك أن لهؤلاء القادة جوانب خالدة من العظمة والجلال يستمدونها من شخصيتهم الإنسانية وحدها . وإن مدى الظفر الذين وصلوا إليه فى ميادين المجد التى اقتحموها والأعمال الخالدة التى سجلوها . ترجع إلى حد كبير لمقدارهم تصريفهم الشخصى للامور وحسن إدراكهم لراميها . وقدرتهم على توجيهها .

ولو كانت هذه الأعمال الخالدة من عمل الوحى وحده . إذن لبطل عمل العظيم أو القائد ولكان هؤلاء الأنبياء أشبه بالاداه التى لا تتصرف وحدها وأقرب إلى الشخصيات الممسوخة التى لا تمضى إلا وفق منهاج محتوم محدد .

ولذلك حق على التاريخ أن ينصف الأنبياء والرسل ، كما انصف الأبطال جميعاً . إذ ليس هؤلاء الأنبياء إلا رجال لهم عقولهم وعواطفهم . ولهم قلوبهم وألسنتهم . ولهم إدراكهم ومميزاتهم الانسانية القوية . وقد جاء اختيارهم لحمل رسالة السماء دليلا على قوة شخصياتهم . وعظمة أخلاقهم وسمو شمائلهم .

اما هذا الوحى فانه لم ينصب إلا على جانب واحد فى حياة النبى أو الرسول

ذلك هو الجانب المتصل . بشئون هذه الرسالة العليا فقد كان هذا الوحى توجهاً لرسم القواعد الرئيسيه . ووضع الخطط الكبرى التى إذا ما قررت ، ترك للرسول بعد ذلك التصرف والعمل والاتصال بالناس والتفاهم معهم على طريقته الخاصة وباسلوبه الخاص ووفق طبيعته ومقدرته وذكائه .

ومن أمثله ذلك موقعة بدر . هـــذه الموقعة الكبرى الفاصلة فى تاريخ الإسلام . ان العرض المنزل من السماء قد اقتصر على قول الله تعالى « إن الله يعدكم إحدى الطائفين .

ثم ترك للرسول بعد ذلك أن يعيء أصحابه . وأن يعد عدة الحرب بعد أن مضت العير ، وأن يستشير أصحابه فى الأمر ، وإن يستمع إلى رأى المهاجرين والانصار . فيرى بعضهم أن هـذا الموضع الذى نزله الرسول ليس بموضع فيسأل الرسول قائلا :

أهو منزل أنزله الله فلما قال له الرسول ان لا قال إن هذا ليس بموضع وأشار بأن يكون المسلمون على الماء وخصومهم لا ماء لهم . وأن يصنع للنبى عريشا يكون فيه . وهكذا .

وعلى مدى طبيعة الرسول وشخصيته وقدرته وذكائه يتوقف تصريف الأمور وتوجيه دفة المعركة وأحراز النصر ومعنى هذا أن امر الرسول لم يكن كله وحياً . وإنما كان له من تصريف الأمور الشيء الكثير . حتى أنه كان يخطيء ويصيب . وقد عاتبه الله على أذنه للمشركين فى حرب من الحروب ، وعلى انه عبس وتولى ان جاءه الأعمى . وعلى أنه قضى فى أسرى بدر فاطلق سراحهم وقبل أفديتهم . وغير ذلك من الأمور وكان للرسول من طبيعته الانسانية ما أتاح له الكثير مما احرز من النصر وما وفق إليه من الوصول إلى المجد فقد جمع من الشمائل التى كان لها الفضل فيما حوله الاتباع بقوة شخصيته وحسن حديثه . « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقد وصل فى ذلك إلى أبعد حدود

القوة لجمع حوله القبائل النافرة . والقلوب المختلفة . والنفوس المتعادية .

هذه الشخصية : شخصية الرسول الانسان . الذى أرسله الله بالاسلام . فسيطر وانتصر وكان موضع التقدير . حتى خصومه كانوا لا ينكرون عظمة شخصيته التى كان لها الأثر البعيد فى نجاح الدعوة إذ كانت القدوة الصادقة التى اقتداها الناس وحاولوا أن يحتذوها وكانت التطبيق العملى للرجل القرانى « وإنك لعلى خلق عظيم » . وإذا كانت أخلاق القران قد مثلت فى صورة رجل كان أصدق الناس إيماناً بالاسلام . فان هذا الرجل هو الرسول .

ولا يمكن أن تقوم دعـــوة أو رسالة أو ديناً . على غير شخصية قوية فذة . تعتبر المثل الأعلى للانسانية . مهما كانت عظمة الرسالة أو جلالها

فاذا قيل بعد ذلك أن الانبياء يتصرفون على أساس مرسوم من الوحى الذى يأتيهم من السماء . فانما ذلك هو التعنت بعينه .

وإنما جاء الوحى للتوجيه فى المسائل العليا التى لا يفصل فيها دون توجيه كما جاء آية من آيات التأييد تمد الرسول أو النبى بالقوة فى نظر أتباعه وخصومه على أنه متصل بالسماء .

ولطالما قالوا عن بعض العظماء والأبطال والدعاة إنهم ملهمون وإنهم يتلقون من أعماق نفوسهم هواتف أشبه بوحى الانبياء .

ولا شك أن طبيعة محمد النقية الخاصة وقوته الذاتية الخالصة . هى الذى خلصته ابداً من المازق . وحلت له العقد وجمعت له الناس . فقد أنشأ نظما وتقاليد وعادات لم يكن يعرفها العرب . وكان لهذه الطبيعة أثرها الفعال فيما أحرز من نصر . وما أتيح لدعوته من ظفر .

فقد كان صلى الله عليه وسلم إنسانا ممتازاً ، يقدره الناس ، ويحبونه ويسمونه الأمين من قبل أن يوحى إليه .

وكان له من اللباقة فى تصريف الأمور ، ما يعد غاية الغايات فى الذكاء والقوة والعظمة قبل أن يكلف بالرسالة .

وموقفه من الحجر الأسود ، حين التقت عليه القبائل ، ورضيت أن تحتكم إلى أول داخل إلى الكعبة غاية فى السداد والبراعة ، ولم يكن رسول الله إذ ذاك فى سن الحكماء !

كانوا يترقبون من يقضى بينهم ، فلما رأو محمد ، فرحوا وأعلنوا غبطتهم قبل أن يقضى لهم وقالوا : ها هو الأمين قد جاء .

ولما قضى لهم ، كان عادلا وكان قضاؤه غاية ما يمكن أن يحسم مثل هذا الأمر إذ وضع الحجر فوق ثوبه وأعطى لكل قبيلة طرفا . ثم تناوله ووضعه فى مكانه . ومعنى هذا أن قبائل العرب قد اختارته حكما لها هو فى هذا السن الباكر وإنها قد رضيت له وأسلمت نفسها لقضائه فيهم ، وفى أمر من أجل أمورهم .. ومعنى هذا أنه قد قضى لها بحكم غاية فى السداد والبراعة ، فلم يغضب أحداً وأرضى الجميع وكان ذلك قبل أن يوحى إليه .

فهذه الشخصية المحمديه الممتازة ، القوية العارضة منذ الشباب الباكر ، هى التى — حين أتيح لها أن تلى أمر الرساله — صرفتها بلباقه وحكمة وسداد وليست أذن عوامل الحكمة واللباقة والسداد طارئة عليها ، أو جاءتها من قبيل الوحى وحده ، وإنما هى طبيعة صادقة مفطورة على تصريف أمور الناس ، هذه الأخلاق ، التى وسمت صاحبها باسم الأمين منذ شبابه الباكر ، وجعلته موضع تقدير الناس . حتى أختارته أغنى سيدات قريش ، لتجارتها ، ووثقت به .

هذه الطبيعة الإنسانية لمحمد قبل أن يجهر بالدعوة ، أو توكل إليه ، كانت كذلك غاية فى القوه ، فقد اشترك فى احلاف قريش . وفى حرب الفجار وحمل السلاح منذ صغره . وكان يجمع السهام التى تقع من هوازن ويقدمها لأعمامه وكان يرمى بعضها بنفسه .

وكان يقول « حضرته مع عمومتى . ورميت باسهم . وما أحب إنى لم أكن فعلت » وأشترك فى حلف الفضول . حيث أجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم فى دار عبدان بن جدعان وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه .

وقال عنه « ما أحب إلى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم لو دعيت به لاجبت »

ومن هذين العملين الذين اشترك فيهما محمد الشاب . تبدو لك الأصول الأولى والجذور الرئيسية واضحة لشخصيه الإنسان العظيم .

فيه طبيعة المحارب القوى الذى أقدم على الحرب وأشترك فيها وهو فى سن العشرين وفيه طبيعة المصلح الوفى الذى أحب أن يكون مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه وقد عاش حياته كلها وفق هذين العاملين كانما جاءا مكملين لشخصيته موضحين لجانبيها الكبيرين . كانما هما شقى حقيقة واحدة . وهى الدعوة إلى الحق ونصرة من ناصرها . وتأييد من دعا إليها والانصاف للمظلوم وحرب الظالم والانتصاف منه .

وقد جاء اتجاهه هذا قبل الوحى معبراً عن طبيعته النفسية الخالصة فى قوتها . وفى سلامتها وفى اندفاعها إلى الخير . فلم يزد الوحى أن كان راسماً للخطة الكبرى . محدداً الهدف الأعظم لرساله ربانية تكون هذه المعانى من قواعدها وأصولها .

وفى شباب النبى ، قبل بعثه . حقائق أخرى ترسم صورة شخيته مجلوة واضحة تلك هى رعية للغنم ، ورحلتاه إلى الشام .

وقد اضافت هذه الرحلات اليه الخبرة الوفيرة ، فاستمع إلى الناس , ورأى البلاد المختلفة وتحدث إلى اهلها — وخاصة فى رحلته الأخيرة وكان فى سن الخامسة والعشرين — ورويت له الاقاصيص والاساطير . وكان يلم بين آن وآخر بأسواق التجارة فى عكاظ وغيرها ، فيلتقى بالتجار فى ميادين التفاخر والجدل والحج . .

والتجارة من اوفر ميادين الحياة خبرة ، اتصل فيها محمد بالعدد الكثير من الاقرام من التجار وأصحاب الحول والطول .. فى غير مكان من الاماكن ، وفى الشام على وجه الخصوص .

وفى خلال فترة الشباب .. عاش محمد نقيا ، لم يقترف مائمة ولا منكراً ولم يضطرب فى ميادين اللهو التى كان يرتادها الشباب ايامه ، وإن كانت نفسه قد حدثته مره بأن يهبط إلى مكة ، ويلهو بها تحت جنح الظلام .. غير أنه ما كاد يبلغها حتى ضرب على اذنه النوم فنام ..

وكان إلى ذلك شابا مكتمل الرجولة والشباب . وسامة وجمالا ، بالاضافة إلى خلقه وطبيعته المعتدلة ، فقد اعجبت به السيده خديجة بنت خويلد ، واصطفته ، على كثره من استأجرت من الرجال لتجارتها ، وكانت غنيه ذات شرف ومال .. وهى من بنى اسد ، وتزوجت مرتين من بنى مخزوم .. وقد ردت عنها طلاب يدها من كبار قريش .

فلما سافر لتجارتها وربحت ربحا عظيما ، وكانت هى فى سن الأربعين وهو فى سن الخامسة والعشرين دست اليه صديقتها نفيسه بنت منيه .. فقالت له ما يمنعك ان تتزوج فقال ما بيدى ما اتزوج به فقالت — فاذا كفيت

ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف الا تجيب . قال فمن هى . قالت خديجة . قال كيف لى بذلك . قالت ذلك على .

وكان فى حديثه أيضاً مثل الإيجاز الذى يؤدى إلى المعنى فى حكمه ووضوح وقوة . عندما طلب إليه أبو طالب أن يذهب إلى خديجة لتساجره فى تجارتها قال له يا بن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وقد بلغنى أن خديجة قد استأجرت فلانا ببكرين فهل نرضى لك بمثل ماأعطته فهل لك أن أكلمها . أجابه بكلمة واحدة فيها كل شيء : ما أحببت .

ومن طبيعة الإنسانية ما أداه لان يفكر فى دينه . وأن يقف من الأصنام موقف الحيرة فهو لم يسجد لها ، ولم يتصل أمره بها . كما اتصل الأمر بين أهل زمانه . وكان يتحنث فى غار حراء من رمضان كل عام . فيقصد إلى هذا المكان المنعزل . فيمضى فيه هذا الشهر متطلعاً متأملا .

وقد اعتاد هـــذا كل عام . حتى لقيه جبريل على رأس الأربعين وأعلن إليه الدعوة .

ومن ثم أصبح نبيا مرسلا .

من أبرز مظاهر شخصية الرسول الإنسانية : العزيمة والتصميم .

فهو منذ أن وكل الله إليه دعوة الناس إلى الإسلام حمل الرسالة فى قوة ومضاء . على وجه قال عنه الله تعالى « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يكونو مؤمنين » وحتى كان الحق تبارك وتعالى يخفف عن نفسه أثر ذلك الاتجاه الحاسم فى الاصرار على دعوة الناس إلى الإسلام وحملهم عليه « أن أنت إلا نذير » . « وما على الرسول إلا البلاغ » .

ويبدو هذا التصميم فى صور متعددة غاية فى الوضوح .

فقد أخذته قريش بالمساءه منذ بدأ دعوته . فلم تترك سلاحاً من الاسلحة الاضطهاد دون أن تستعمله معه . اساءته باللسان . واليد والقاء الروث فما ضجر لذلك . ومضى يحمله صابراً محتسبا .

ولما القى التراب على رأسه دخل منزله وأخذت فاطمة تغسله عنه وهى تبكى . قال لها : لا تبكى يابنية أن الله مانع أباك . وبلغ به مضاء النفس ذروته وقوته عند ما تحدث إليه عمه يدعوه إلى بعض اللين فى مواجهة قريش

هذا عمه الذى يعتمد عليه . والذى تحجز عنه قريش بظلها وطغيانها يأتيه فيخاطبه فى أن يلين شيئاً ، فقد حدثه القوم وأ كثروا من القول .

وقال له : يا ابن أخى ابق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

ولكن محمداً لم يلبث أن فاجىء عمه بما أذهله إذ قال له فى قوة : والله يا عم لو وضعوا الشمس عن يمينى والقمر عن شمالى على أن اترك هذا الأمر أو اهلك دونه ما تركته » .

ثم مضى وقد خنقته العبرة . فما لبث عمه أن قال له : إذهب يا ابن أخى

فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً .

ولم يكن من شأن رجل عقد العزم على أن يبلغ رسالة ربه أن يصرفه عنها موت خديجة أو موت أبو طالب ، وقد قضيا فى عام واحد ، حتى أطلق عليـــه عام الحزن . لشدة ضغط قريش ، ففـكر فى أن يفتح جبهة جديدة ! وأراد أن يتخذ له من المحنة مخرجا فقصد إلى الطائف .

ولـكن الأمر جاء مختلفاً مع تقديره ، فقد لقى من أهلها أقسى مما لقى من قريش ، ايذاء ومساء ، فقد تآمروا على قتله ، فلما أراد الانصراف رشقوه بالحجارة فى عقبيه الشريعين حتى دميتا فلما اشتد به الأمر جاس يستجمع قواه وهنا بلغت نفسه من الألم غاية ما تبلغ النفس البشرية حين تحيطها المتاعب ويغزوها الاضطهاد وتضيق بالسحب الـكثيفة المتجمعة . وهنا دعا دعائه الحار « إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولـكن رحمتك أوسع لى » .

فلما أن انتهى من دعائه استروح ، وسرى عنــه ، وصفت نفسه ، وملأت روحه السكينة حين استشعر أنه افضى بذات نفسه إلى ربه وانه لجأ إلى الله الذى حمله هذه الدعوة .

وهنا جاءه النصرانى بقطف العنب ، فأخذ يداعبه ويحاوره .

ـــ من أين أيها الأخ

ـــ من نينوى

ـــ من بلد الرجل الصالح أخى يونس بن متى

.. وهنا فهم الرجل أنه نبى ، ودارت فى خاطر محمد قصة يونس وكيف فر من قومه ، ومن رسالته ، فالتقمه الحوت .

فأزمع العودة .. إلى مكة كيفما يكون الأمر

وتصدى له زيد بن حارثة، وكان رفيقه — يقول له : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك

قال له يا زيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وأن أن ناصر دينه ومؤيد نبيه . ويتصل بهذا العزم والتصميم الذى صدر عن نفسيته القوية أنه كان يعلم مدى ما يحدثه أمر الأسراء فى الناس ، وأن الحديث عنها بالغ الخطر ، وإن أهل مكة قد كذبوه فى أمر الوحى يأتيه من السماء . وينزل عليه . فما بالهم إذا علموا أن محمداً هو الذى ارتقى هذه المرة إلى السماء بعد أن قطع الطريق من مكة إلى الشام ومع ذلك فقد حدثهم به وكان ذلك من أبعد الامور أثراً فى حياة الدعوة . إذ صرف عنه بعض الناس .

وكان قد حدث به ﷺ أم هانىء عند ما أصبح قال لها : لقد صليت معكم العشاء بآخرة كما رأيت فى هذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . قالت له يا نبى الله ، لا تحدث الناس به فيكذبوك فأجاب : والله لا حدثنهموه .

وليس أبلغ من تصميمه على الأمر الذى أرسل به . هذا التصميم الذى لم تستطع وسائل الاغراء بالغة ما بلغت أن تؤثر فيه .

ذهب إليه عتبة بن ربيعة مندوباً عن قريش . يحاول أن يثنيه عن عزيمته حيث قال له . يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى تبرأ ،

. وظل الرسول يستمع إلى الرجل حتى انتهى من كلامه . ثم لم يلبث إن أخذ يتلو بعض آيات القرآن الكريم من سورة السجده .

ومن صور هذا العزم والتصميم قول عمر له : يا رسول الله قد أثر فى جنبك هذا الحصير . وفارس والروم قد وسع الله عليهم ، وهم لا يعبدون الله

فاستوى جالسا وقال أفى شك أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا .

وكان لا يدفعه ضعف أتباعه إلى كسب الأنصار بالإيهام أو الوعود .

وإنما كان على عزيمته وتصميمه فى أن يبلغ من يصل إليه رسالته على وجهها دون مجاملة أو تمليق . جاءه عمر بن صعصعة على رأس وفد فلما أقبل وسلم بدأ حوارهما على هذا الوجه .

ــ يا محمد اتخذنى خليلا

ــ لا والله ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له

ثم وضع وسادة ، وقال يا عمر أسلم .

ــ أتجعل لى الأمر بعد أن أسلمت

ــ ليس ذلك لك ولا لقومك ، إنما ذلك لله يجعله حيث يشاء . ولكن لك أعنة الخيل

ــ أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، أفتجعل لى الوبر ولك المدر

ــ لا

ــ ما لى أن اسلمت

ـــ أما والله لاملأنها عليك خيلا ورجلا . ولاربطن بكل نخلة فرساً

ـــ يمنعك الله

ومثل هـذا ما حدث به بنو عامر : قالوا له . يكون لنا الأمر من بعدك قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء . فلووا وجوههم وردوه . وكما احتمل فى مكة اضطهاد قريش احتمل فى المدينة جدل اليهود ومؤامراتهم .

لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ـــ لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم

عاش طوال حياته تلك الحياة البسيطة الخشنة . وكان فى أول أيام دعوته ، كما كان بعد أن بسط سلطانه على الجزيرة كلها .

كان سريره من سعف النخل ، وفراشه من ادم . وكان طعامه آية فى البساطة وما عاب طعاماً قط ، وكان يرقأ ثوبه ، ويكره الحرير ويصبح أحيانا فلا يجد طعاماً فينوى الصيام .

ويقول فى هذا « لقدأخفت فى الله ما لم يخف أحد ، وأوذيت فى الله ما لم يؤذ أحد . ولقد أتى على ثلاثين يوماً ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلال من الطعام ألا شىء يواريه أبط بلال »

وكان يقول « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »

وعند ما عقد زواجه على السيدة ميمونة ، قال الرسول: من كان عنده شيئاً فليجىء به . وبسط نطعا فجعل الرجل يجىء بالتمر وجعل الرجل يجىء بالسمن أو أحسبه ذكر السويق »

وكان رسول الله يطيل الصوم أحياناً حتى كانت السيدة عائشة تقول لقد كنت أبكى رحمة بما أرى ، وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقوتك ، فيقول يا عائشة مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب مر بشجرة فاستظل بها ثم مضى وتركها .

وليلة عرسه بأم سلمه كان طعامه جرة فيها شىء من شعير ، ورحى برمة وقدر وكعب قالت فاطمة « فأخذت الشعير فطحنته ، ثم عصدته فى البرمة . وأخذت الكعب فادمته »

وكان دقيق الحس . يستقبل الحياة بنفس غاية فى الصفاء على الرغم من هذا كله .

وكان يؤتى له بالباكورة من الفاكهة فيقبلها ويضعها على عينيه ، ويقول « اللهم كما أريتنا أوله فارنا آخره » .

واهدى إليه مرة طبق من رطب فجثا على ركبتيه وأخـــذ يناول أبو هريرة قبضة منه ، يرسل بها إلى نسائه . وأخذ قبضة منها فاكلها .

ولطالما بات الليالى المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان يشد صلبه بالحجر من الغرث . وقالت عائشة « ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاث أيام متتالية حتى لحق الله .

ويقول أيضاً « أننا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال . ثلاثة أهلة فى شهرين ما أوقدت فى أبيات رسول الله نار ، فقلت يا خاله ما كان عيشكم : قالت الاسودان التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول الله جيران من الأنصار لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله من البانها فيسقنا .

وقيل أنه ما أكل أكلتين فى يوم واحد .

وكان رسول الله إلى هذا آية فى التواضع يحلب شاته ويخصف نعله ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .

وكانت حجراته التى يسكنها من اللبن واطئة ضعيفه ، بينها حواجز من جريد النخل ملبس بالطين .

وكان يلبس المرقع من الثياب ، وبيناهو على هذه الصورة كان يهز الدنيا ويقيمها ويقعدها ويكتب إلى قياصرة الروم وأباطرة الفرس يدعوهم إلى الإسلام فيهز عروشهم ويملأ قلوبهم بالرعب .

كان صلى الله عليه وسلم غاية فى الحرص على أن يؤكد لاتباعه والمتصلين به أنه « إنسان » . حتى وصفه الناس بما ذكره القرآن « مال هـذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما الهكم إله واحد » .

وقد أحرجه قومه وطالبوه بالمعجزات ، وقالوا له لم لا تحيى الموتى ، ولا تحيل الصفا ذهبا وتفجر فى الأرض ينبوعا . فلم يزد على أن قال لهم : إن كنت إلا بشراً رسولا .

وكان من حرصه هذا على معنى « الإنسان » انه كان يصلى فى الليل حتى تتورم قـــدماه وانه كان يستغفر الله كثيراً ويقول « انه ليغان على قلبى فاستغفر الله »

فاذا قيل له أنه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال « أفلا أكون عبداً شكورا » .

ولم يميز نفسه عن أصحابه فى الخندق . كان يحمل التراب مع القوم ويرتجز لهم ليذهب عنهم الضيق فيقول « اللم لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا . فانزلن سكينة علينا »وفى مسجد المدينة عمل مع الآجير والعاجز

وعندما أخذوا يعدون طعامهم وقال أحدهم على ذبح الناقة ، وقال الآخر على سلخها . قال الرسول ، وأنا على جمع الحطب .

وفى بدر كان المسلمون يتبادلون النياق فكان الرسول يركب مع على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد وكان إذا جاء دوره نزل ومشى . فكانوا يكلمونه فى ذلك . رغبة فى أن يظل راكبا فيأبى ويقول ما أنتما بأقوى منى ، وما انا بأقل حاجة إلى الثواب منكما .

وكان يحرس بنفسه ثلمه فى الخندق ، فاذا أشتد عليه البرد دخل قبته فتدفئه عائشة ثم يخرج إلى الثلمة يحرسها . ويقول : ما أخشى على الناس الامنها . وكان يبلغ به الأمر فى هذا المعنى أنه كان يستغفر من دعوة يدعوها فى ساعة غضب فيقول « اللهم أنا بشر أغضب واسف كما يغضب البشر . فايما مؤمن دعوت له بدعوة فاجعلها له رحمة .

وكان يسترجع فى بعض الأمر بعد أن يتمه ، ويندم على أنه فعله . قال بعد حجه الوداع « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » .

وقال . . « فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أفعله ، دخلت البيت فعسى الرجل من امتى لا يقدر أن يدخله فتكون فى نفسه حزازة ، إنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول .

وحرص على هذه « الإنسانية » حتى لا يجعل منها منفذاً إلى تأليه لشخصة صادف أن كسفت الشمس يوم مات ابنه ابراهيم .

فقال فى المسجد . إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله .

وقاموا له ذات مرة فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا .

وكان لا يقدم نفسه ولا يضع شخصه فى موضع يتميز به عن أصحابه .

ولما زار سعداً قدم له حماراً قال لابنه قيس . أصحب رسول الله فصحبه ، فلما كانا فى الطريق قال له اركب فأبى فقال الرسول ، أما أن تركب وإما أن تنصرف .

وجاءه رجل وهو يمشى فقال اركب يارسول الله « وتأخر عن حماره فقال له الرسول ، أنت أحق بصدر دابتك منى ، إلا أن تجعله لى . قال الرجل

فانى قد جعلته لك . فركب .

ولما أرعد الاعرابى خشية منه زجره وقال له . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وكان دائماً يقول . إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد .

ويقول : الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب .

وكان إذا مشى فى طائفة من أصحابه سار آخرهم ، وكان يتخلف فى طريق الغزو فيزجى الضعاف ويردف ويدعو لهم .

وكان يمثل « الانسان » فى صورة صحيحة ، لا تكلف فيها ولا تطارف .

قال للقوم الذين أخذوا انفسهم بالصوم فلا يفطرون ، وبالقيام فلا فلا ينامون . إما والله إنى لا حشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقـــد وأتزوج . فمن رغب فى سنتى فليس منى »

. . وكان يدع العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يكلف الناس من أمرهم رهقا . ويلجأ إلى الله فى كل أمره ، ويقف منه موقف الخشية . وهو المؤيد بالوحى . الذى وعده الله النصر .

وله دعاء إذا جاء أمر يحبه أو يكرهه . وإذا اراد سفراً أو نوما . أو يقظة . وإذ لبس ثوبا أو اكل أو شرب أو تقلب من الليل وكان إذا حزبه أمر أكثر من الصلاة .

وكان إذا هاجم قوماً قال : اللهم خذ عليهم الأبصار حتى آتيهم بغته .

وكان يقول لا يبلغنى أحدكم عن أحـد أصحابى شيئاً فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

وقال له وفـــد بنى عامر أنت سيد . قال . السيد الله . قولوا قولكم

ولا يستخزينكم الشيطان . ويقول أبو هريرة أن رسول الله أمرنا أن نحثو التراب فى افواه المداحين .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤكد معنى انسانيته . فيقول إنما أنا بشر مثلكم وأنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض فاحسب انه صدق فاقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هو قطعة من النار فليأخذها او يتركها .

كان رسول الله غاية فى حسن الخلق والخلق . فية جماع الخلق كله ، الوقار والبساطة وحسن البادرة والتواضع .

كان يتجمل لأخوانه إذا خرج اليهم ويقول ان الله يحب ذلك .

ويركب الحمار فى الأسواق ويعتقل الشاة فيحلبها .

وكان يأكل مع خادمه . ويقول إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فان لم يجلس معه فليبادله لقمه أو لقمتين . ويقول هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم من العمل ما يعنتهم فان كلفتموهم فاعينوهم عليه .

وكان فى طبعه وخلقه على صورة الإنسان الكامل إذا سلم لم يسحب يده حتى يكون صاحبه هو الذى يسحبها .

إذا تصدق وضع الصدقة فى يد السائل .

إذا أقبل جلس حيث انتهى به المجلس .

وكان يذهب إلى السوق ويحمل ما يشتريه .

وكان يسرع فى مشيته ، ويرفع يديه بالدعاء حتى يرى بياض أبطه .

ويتلفت بكل جسمه ، وإذا غضب فكانما يفقأ فى وجهه حب الرمان وتحمر عيناه .

وكان أخف الناس صلاة مع الناس ، وأطولهم صلاة مع نفسه .

وإذا مشى كانما يتحدر من صبب ، ويرفع قدميه فيرفعها تقلعا .

وعرف صلى الله عليه وسلم بالصباحة والوسامة . والصوت القوى .

والوجه الطليق المهيب .

وقد قال عنه خادمه أبو هريرة . صحبت رسول الله عشر سنين فما قال لى اف قط .

وما قال لشيء صنعته لم صنعته ، ولا لشيء تركته لم تركته .

وكان يصف نفسه فيقول . أنا اعربكم وأنا قرشى . واسترضعت من بنى سعد بن بكر » .

وكان صلى الله عليه وسلم على ما اجمعت المصادر ليس بالطويل ولا بالقصير . ضخم الرأس واللحية شثن . الكفين والقدمين . مشرب بحمرة الكراديس . طويل المسربة . إذا مشى تكفا كانما ينحط من صبب .

ومما يروىعنه انه كان إذاسقى الناس شرب بآخرهوقال ساقى القوم آخرهم شربا وكان يعطى عطاء من لايخشى الفقر . وما سئل شيئاً قط وقال لا .

ولما قيل له ادع على المشركين قال انا ما بعثت لعانا وإنما بعثت رحمة

وكان أجود من الريح المرسلة . ولم يقل لا . إذ سئل فاراد أن يفعل قال نعم وإذا لم يرد أن يفعل سكت .

وكان يحب التميز فى كل شيء . فى طهوره وفى ترجله وفى تنقله .

وكان اذا مشىاسرع حتىيترك الرجل وراءه فلا يدركه . وكأن الأرض تطوى له . يقول أبو هريرهوانا انجهد وهو غير مكترث .

ومما يروى قولهم : أننا كنا نعرف خروج النبى بريح الطيب .

وأنه ما جلس إليه أحد ألا ظن أنه أقرب الناس إلى نفسه .

وقالو أنه كان متواصل الاحزان . دائم الفكرة . ليست له راحة . لا يتكلمفى غير حاجة. طويل السكت . يفتحالكلام ويختمه باشداقه . ويتكلم

بجوامع الكلام .

ولا يذم شيئاً . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وإذا أشار أشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها .

وكان لا يطوى عن أحد بشره . ويتفقد أصحابه . ويسأل الناس عما فى الناس . وإذ اراد أن يقول شيئاً لأحد لم يجابهه به . وإنما يقوله فى جمع من أصحابه على سبيل التوجيه .

وكان لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر . وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس . ويعطى لكل جلسائه بنصيبه . حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

ومن جالسه أو قاومه فى حاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف .

وكان لا يذم أحداً ، أو يعيره ، ولا يطلب عودته . ولا يتكلم الا فيما يرجى ثوابه .

وكان إذا اشتهى طعاماً اكله وإن كرهه تركه .

وينتظم هذا فى قوله « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ويجلس فيه . وإذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث . ويسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد . والقليل على الكثير .

وعن عائشة أنها كانت تفرش للنبى عباءتين . فجاء ليلة وقد رتبتها له فلم ينم وفى الصباح قال يا عائشة ما لفراش الليلة ليس كما كان . فقالت : يا رسول الله لقد رتبتها لك . فقال . أعيديه كما كان فانه حرمنى النوم الليلة

وكان جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام .

ومن رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه .

وكان يؤثر من يدخل عليه بوسادته وينعم بعباءته . وإذا افتقد الرجل من أخوانه ثلاثة أيام سأل عنه .

وكان يحسن صحبة من يعرفه . ويقول ما صاحب مسلم صاحبه ساعة من نهار الا سأل عن صحبته يوم القيامة .

وكان يقول أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون اكنافا الذين يالفون ويالفون وما خير بين أمرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن اثما .

وكان اذا صافح الرجل لم يدع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزعها ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه . ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له .

آية نقاء النفس الانسانية وجلال صفاتها وبلوغها درجة عالية من السمو: حب الناس لها والتفافهم حولها . وقد كانت نفسيات المصلحين والدعاة والقادة مثلا رائعاً لهذه الطبيعة السهلة السمحة . وكان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم آية من الآيات فى هذا الباب .

تقول له السيدة خديجه ، عندما فجأه الوحى فى غار حراء وذهب اليها يرعد . والله لا يخزيك الله ابداً . إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق .

وكانت تلك هى شمائل محمد الإنسان قبل أن يبعثه الله بالرسالة . وهى غاية الغايات فى كمال الشخصية وسموها فهو رجل قد وهب حياته لأهله وبنى الإنسان يصل ارحامهم ويحنو على ضعفائهم ويتصدق على معدوميهم .

وقد بلغ رسول الله فى نفس اخوانه مبلغاً كبيراً بحسن خلقه وكريم معاملته . قال لعمر وهو ذاهب إلى مكة لاداء فريضة الحج حينما جاءه لوداعه: يا أخى لا تنسنا من دعائك .

فكان عمر يهتز فرحا وعجبا ويقول : والله ما أفضل بها — أى هذه العبارة — شيئاً طلعت عليه الشمس .

وكان يرسم الخطط الرئيسية لهذا الترابط الروحى بقوله أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافا الذين يالفون ويالفون .

وكان عفوه آية من الايات فى عظمة شخصيته الإنسانية .

عفى عن وحشى قاتل حمزه ، وعفا عن عبد الله أبن ابى ابن سلول .

وعفا عن فضالة بن عمير وقد أراد أن يقتله . ووضع يده على صدره يقول فضالة والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله أحب إلى منه

وعفا عن أهل مكة وقداخرجوه وكانت أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليه فلما عاد وصعد المنبر ، وقفت مكة كلها تحت قدميه تفرق وترعد . فجابهها بالحقيقة النادرة .

- ماذا ترون إنى فاعل بكم
- أخ كريم وأبن اخ كريم
- إذ هبوا فانتم الطلقاء

وكان يوصى بهذا . ويرسم الخطة المثلى للشخصية الانسانية . التى تستطيع أن تظفر بحب الناس .

« تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك »

ومن صور العطف المستنير ، الذى يفصح عن شخصية الرسول الآسره أنه اطلق ابنه حاتم الطائى وقال . أنه لا يليق أن تأسر ابنه من رفع ذكر العرب فى الكرم ولولم يكن مسلماً .وكساها كسوة حسنه وأعطاها نفقتها وحملها مع أول را كب إلى قاصداً إلى الشام فلما لقيت أخوها وذكرت له ماأ كرمها به محمداً قصد إلى المدينة فالقى نفسه بين صفوف المسلمين .

وكان وفياً غاية الوفاء . حفظ ذ كرى خديجة وظل يذ كرها بالخير طوال حياته وظلت حليمة السعدية طوال حياتها موضع رعايته ، وكان يمد لها طرف ردائه لتجلس عليه وورد سبايا هوازن من أجل حاضنته «الشيماء» وكانوا ستمائة . ولما أحس الرسول أن أبا طالب لا يستطيع ان ينفق على اولاده . تحدث إلى العباس فقال له أن اخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد اصاب الناس ما ترى من هذه الازمة . فانطلق بنا فانخفف من عياله ، آخذ من بيته رجلا ، وتأخذ انت رجلا فنكفلهم ، فكفل العباس جعفراً وكفل محمدعليا وكان يحب اتباعه وأنصاره ولا يفضلهم فى أى عمل فى الخندق، وفى بناء مسجد

المدينة وفى الطريق إلى بدر .

ومما اثر عنه فى هذا الصدد : إن جابراً رأى رسول الله خميصا . ضامر البطن من الجوع . فاتى امرأته فاخبرها . قالت والله ما عندنا شيء إلا هذه الشاه ومـد من شعير قال فاطبخى واصلحى فطبخوا بعضها وشووا بعضها وخبزوا الشعير وأعدوا طعاما يكفى ثلاثة أو اربعة . وجاء جابر رسول الله . وقال له لقد صنعت لك طعاما وآت أنت ومن تحب من أصحابك . فشبك الرسول أصابعه بين أصابع جابر . وقال للناس : أجيبوا جابر يدعوكم فاقبل معه عدد كبير .

وقد استطاع الرسول بحسن تصريفه أن يوزع عليهم الطعام حتى كفاهم ومن شمائله الانسانية أنه كان يغضب ويأسف . على أسلوب غاية فى كمال الطبع الإنسانى .

أودع عائشة أسيراً فشغلت عنه فهرب فسأل عنه فقالت غفلت عنه وكان هنا آنفاً ، فغضب وقال لها قطع الله يدك .

وخرج فلما عاد وجدها تقلب يدها .

فقال مالك . قالت انظر كيف تقطع يدى ، وقد دعوت على دعوتك فاستقبل النبى القبلة وقال . اللهم إنما أنا بشر أغضب واسف كما يغضب البشر . فايما مؤمن أو مؤمنة دعوت له بدعوة فاجعلها عليه رحمة .

وكان لا يرد الناس عن الحديث معه مهما كان أمرهم ، حتى قيل أن امرأة كان فى عقلها شيء فقالت يا رسول الله إن لى إليك حاجة فقال يا أم فلان أنظرى اى السكك شئت حتى اقضى لك حاجتك فخلا بها فى بعض الطرق حتى فرغت من حديثها . وكان فى المعاملة مثلا من أكرم الأمثلة فى الوفاء والخلق والسماحة . روى اليهودى الذى كان يداينه ، يقول ، كان لى

عند رسول الله دين حتى إذا بقى من الاجل يوم اتيته ، فقلت يا محمد ، اقض حقى فانكم معاشر بنى عبد المطلب مطل فقال عمر : يا يهودى الخبث ، والله لو كنت مكانه لضربت الذى بين عينيك فقال رسول الله . غفر الله لك يا ابا حفصه ، انا وهو كنا إلى غير هذا احوج منك يا عمر ، تامره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء قال ، فلم يزده جهلى إلا حلماً ، وسكت برهة وقال فى هدوء بالغ : يا يهودى إنما يحل حقك غداً .

وكان يحرص على أن يعرف حاجات أصحابه ويقول ، ليبلغ الشاهدالغائب وابلغونى حاجة من لا يستطيع ابلاغى حاجته فانه من ابلغ سلطانا حاجة لا يستطيع ابلاغها اياه ثبت الله قدميه يوم القيامة .

ومن آيات وفائه انه عند ما بعثت زينب فى فداء زوجها العاص بن الربيع بقلادة لها كانت لخديجة رضى الله عنها من جزع ظفار ، رق لها رسول الله وقال ، إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها متاعها فافعلوا.

من ابرز صفات محمد الإنسانية الشجاعة المطعمة بالحكمة واللباقة السياسية فقد كان ثابت القلب لا يهاب فى مواقف الوغى فاذا وقف أمام ربه يقف خاشعا يسأل سؤال الملهوف . يقول فى بدر ، اللهم هذه قريش قد اقبلت فى خيلائها وفخرها . تجادل وتكذب رسولك . اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض . يقولها وبين يديه القوة المسلحة المتأهبة للقتال .

أما وهو فى غار حراء . وليس معه سلطان ولا قوة . يقول له أبو بكر . لو نظروا تحت اقدامهم لراؤنا فيقول يا أبا بكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

وكان يترصد مواقع الخطر ، ويبرز إليها وهو القائد قبل الجنود . يقول على . كنا إذا اشتد الوطيس وحمى البأس وأحمرت الحدق أتقينا برسول الله ما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه .

وفى ذات ليلة سمع الناس صوتاً ففزع المسلمون وخرجوا لاستطلاع الأمر فوجدوه راجعا على فرس عرى . والسيف فى عنقه . فلما استقبلهم قال فى ثقة الشجاع . لن تراعوا . لن تراعوا .

وفى أحد . احتمل كأى مسلم نصيبه من المعركة كأقسى ما يمكن أن يحتملها إنسان . لما ارتدوا جعل يناديهم . إلى يا فلان إلى يا فلان . انا رسول الله وهم لايلوون على شىء . والنبل يأتيه صلى الله عليه وسلم من كل ناحيةوهو فى قلب المعركة تنتاشه بعض الأحجار . فكسرت رباعيته وشج فى جبينه . حتى غاب حلق المغفر فى وجنتيه . ووقع رسول الله فى الحفرة على جنبه فاصيبت ركبتاه . وترس أبو دجانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره . والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك . وبعد هزيمة أحد وقف أبو سفيان على القوم . ينادى والرسول يسمعه . قال افى القوم محمد فقال الرسول لا تجيبوه ـ افى القوم أبو قحافة ـ لا تجيبوه ـ او هؤلاء قتلوا ولو كان أحياءنوا لأجابوا قال

قولوا له كذبت يا عدو الله . قال أعل هبل قال الرسول . اجيبوه الله اعلى وأجل قال لنا العزى ولا عزى لكم ـ قال الرسول الله مولانا ولا مولى لكم قال أبوسفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال . وكان يقول للمتحمسين للحرب من الشباب لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية . فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف وكان ينزل على رأى أصحابه عندما نزل بدر جاءه العاص بن الربيع قال يا رسول الله اهو منزل انزله الله ام هو الرأى والمكيدة والحرب قال . قال الرسول بل هو الرأى والمكيدة والحرب .

قال إذن ليس هذا بمنزل .

ولكنه كان إلى هذا غاية فى الكياسة الحربية . وسعة الإدراك .

لما نزلت قريش بدراً اراد ان يعرف عددهم . فسأل كم يذبحون .

قالوا يوم تسعا ويوم عشرا . فقال تواً أن القوم بين التسعمائة والألف

وكان يرتب الرماة ويصف الفرسان ويشرف على المعركة . ويسوى الصفوف حتى كأنما يقدم بهم القداح . إذا رأى صدراً خارجا قال تاخر .

وبعد ان انتهت معركة أحد . كان قد قيل انهم سيعاودون الكرة .

فبعث سعد بن وقاص لينظر . وقال له . ياسعد ان ركبوا الابل وجنبوا الخيل فهو الظعن وإن ركبوا الخيل وجنبوا الابل فهى الغاره .

وهذه غاية بصر القائد العسكرى المحنك .

وفى غزوة « حنين » واجه المسلمون نبال المشركين . فى عماية الصبح . وهى تقذفهم فى قوة وعنف . فكروا راجعين وصمد رسول الله وهم يفرون عن يمينه وشماله . وثبت ثباتا عجيبا .

ومضى يردد فى قوة . انا النبي لا كذب . ابن عبد المطلب .

وكما كان صلى الله عليه وسلم يرتب الرماة فى الحرب ويرسم لهم الخطط ويشاورهم فى منازلها ويستجيب لهم وينزل عند رأيهم إذا رآه خيراً من من رأيه . كان فى السلم كذلك . لما سألوه عن تابير النحل قال انتم أعلم بأمور دنياكم وكان يقول « إن الله كتب الاحسان على كل شيء فان قتلتم فاحسنوا القتله واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليريح ذبيحته .

وكذلك كان يفعل فى تنظيم الحياة الاجتماعية .

الطبيعة الإنسانية الممتازة بالعقل والحكمة والذكاء تعرف أمر السماء فى دقة وفى بساطة وفى تنظيم . عن عبد بن عمر قال امرنى النبي صلى الله عليه وسلم أن اتيه بمدية فأتيته بها فارسل بها فارهفت ثم اعطانيها فقال . اغد بها على . ففعلت فخرج بأصحابه إلى اسواق المدينة وفيها زقاق الخمر . قد جلبت من الشام فاخذ المديه منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم اعطانيها . وأمر الذين كانوا معه ان يمضوا معى ويعاونونى وامرنى ان آتى الأسواق كلها فلا اجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت .

وكان عمر يراجعه . وينزل النبي عن رأيه . ولا يضيق به .

حدث انأ قام المسلمون بالحديبية بضعة عشر يوماً . ثم انصرفوا . فلما نزلوا عسفان ارمل المسلمون من الزاد وسألوا رسول الله ان ينحروا ابلهم فاذن لهم فى ذلك فقال عمر : يارسول الله لا تفعل فان يك فى الناس بقية ظهر يكن امثل . ولكن ادعهم بازوادهم ثم ادع لهم الله فيها فامر رسول بالانطاع فبسطت ثم نادى مناديه . من كان عنده بقية زاد فلينثره على الانطاع فكان منهم من يأتى بالثمرة الواحدة او يأتى بالكف من الدقيق والكف من السويق . ثم مشى صلى الله عليه وسلم فدعا فيها بالبركة .

كان محمد غاية فى البلاغة وحسن الحديث واللباقة فى الإقناع . وكانت عائشة تصف حديثه فتقول ، إنه ما كان يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ولو عده العاد لاحصاه .

وكان هذا من أبرز معلم فى طبيعته الإنسانية . من أكبر اسباب نجاحه فى دعوته والتفاف الناس حوله . يقول عدى بن حاتم وقد جاءه يشكر له مافعل فى اكرام اختـــه . انه قام فانطلق بى إلى بيته فوالله انه لعامد إليه اذ لقيتـه امرأة ضعيفه كبيرة فاستوقفته . فوقف طويلا ، تكلمه فى حاجتها قال فقلت والله ما هذا بملك قال ثم مضى بى رسول الله حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من ادم محشوة ليفا فقذفها إلى وقال اجلس على هذه فقلت بل انت فاجلس عليها قال بل انت فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض .

قال فقلت فى نفسى والله ما هذا بامر ملك .

ثم قال : اى عدى ابن حاتم . ألم تكن ركوسيا . قلت ـ بلى قال فان ذلك لم يكن لك فى دينك . قلت اجل والله وعرفت انه نبى مرسل يعلم ما يجهل .

قال لعلك يا عدى ، إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .

وكان حديثه عجبا فى الاقناع والترويح عن النفس حين تضيق بأمر من أمورها لما جاءه اصحابه وقد ضاقوا بانهم فاتتهم الصلاة . قال لهم . إن الله قبض ارواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء .

ولما اعطى لأعرابى . وسأله امام اصحابه . أأحسنت إليك .

قال الأعرابى . لا احسنت ولا اجملت .

قالوا فهممنا ان نبطش به . غير ان الرسول اخذه إلى بيته وزاده . وقال له أأحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

قال النبي . انت قلت ما قلت وفى نفس اصحابى من ذلك شيء فان احببت فقل لهم ماقلت الآن بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم .

ولما خرج به . قال لهم إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم انه رضى . أكذلك قال الأعرابى نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا . وانتهز الداعية اللبق الفرصة . فقال مثلى ومثل هذا الأعرابى وأخذ يسرد قصة الناقه التى شردت من صاحبها .

وكان يأخذ اتباعه بالحسنى فيقول إذا امرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه .

وعند ما اعلن دعوته استهلها استهلالا غاية فى اللباقة والكياسة والقدرة على مواجهة الأمور . وقف على الصفا . وكان اعلى مكان فى مكة ونادى رجال للقبائل . فهرعو إليه وقالوا . إن محمداً على الصفا ينادى .

فلما اجتمعوا له . قال لهم . ارأيتم لو حدثتكم بان خيلا بسفح هذا الوادى تجرى . اكنتم مصدقى قالوا نعم . انت عندنا غير متهم .

قال فانا رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد .

وقد ظلت قريش على عنتها وظلمها تعجب لهذا « الأمين » وتقف منه موقف الحيرة . مفرقة بين شخصه وبين ما جاء به ويسجل القرآن هذا المعنى حيث يقول . « انه ليحزنك الذين لايكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

وآية هذا الأعجاب ما كان يفعله أبو سفيان . وأبو جهل والاخنس . كان كل منهم يذهب إلى حيث يصلى محمداً ويقرأ القرآن فيجلس ليستمع إليه فاذا انتهى انصرف كل منهم فاذا بهم يلتقون وجهاً لوجه . فيتلاحون

ويتواعدون على ألا يعودوا .

فاذا الليل يجمعهم مرة أخرى .

وكان غاية ما يكون بلاغة فى المواقف السياسية الهامة . كان المسلمون فى الخندق قد حصرتهم قريش والقبائل حصاراً عنيفا. وكاد المسلمون أن يفتنوا فى دينهم وظل الرسول وكبار الصحابة يلتمسون مخرجا . فلما جاء نعيم بن مسعود مسلماً وكان ذا مقام عندهم جميعاً وأراد أن أن يؤدى دوراً . لم يزد الرسول على أن قال له فى كياسة عبارة واحدة : خذل عنا ما استطعت .

ولما بركت راحلته قبل مكة . وهو فى طريقه إليها فى الحديبية . وكان الظن أن يدخل المسلمون مكة . دهش الناس وتساءلوا .

فقال لهم بفصاحته المعهودة . ما خلات الناقة ولا هولها عادة ولكن حبسها حابس الفيل . ثم واصل قوله بأسلوب من شأنه أن يريح النفوس . ويذهب عنها ما أزعجها . أما والله لا تسألنى قريش اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله الا اعطيتهم اياها .

وكان صلى الله عليه وسلم آية الات فى مواجهة الموقف . الحادة المحيرة .

ومن ذلك موقفه فى الحديبية وقبل الصلح بعد أن بلغ الموقف غاية الخطر عندما تغيب عثمان . وقد ارادت قريش أن تعرف الموقف . فارسلت الحليس ابن علقمة سيد الأحابيش ورائهم . فلما علم الرسول هذا اراد أن يعرف الرجل أن المسلمين إنما جاءوا ايزوروا البيت لايحاربوا . قال هذا من قوم يعظمون الهدى ابعثوا الهدى فى وجهه فبعثوه فلما رأى الهدى يسيل فى الوادى على القلائد . قد اكل أوباره طول الحبس فى مكة . يرجع الحنين . واستقبله القوم فى وجهه يلبون . رجع الرجل ولم يصل إلى النبى اعظاما لما رأى :

وكان يبعث التفاؤل حوله بعبارات غاية فى الجمال والروعة .

لما جاءه سهيل بن عمرو ليفاوضه قال : سهل امرهم .

فلما رأى قريش اقبلت للتفاهم . جمع الناس على البيعه ، فلما رأى اهل مكة اسراع الناس إلى المبايعه . والتفافهم بالنبى وتشميرهم للحرب . اشتد عليهم . واسرعوا إلى الصلح وتلك من قدرة السياسى وبلاغة الداعية معا .

وعندما اشتد امر ابو بصير . كانت كلمة واحدة من النبى البليغ . كافية لأن تلغى نصاً من نصوص معاهدة الحديبية ، وتدفع قريش إلى ان تطلب ذلك من النبى فقد كانوا شرطوا أن يرد محمد من يأتيه منهم ، وقبل النبى الشرط . فلما أوشك العقد ان يبرم جاء أبو جندل مغللا موثقا فى الحديد هاربا من السجن ففرح المسلمون لما رأوه . فلما رآه سهيل ـ أبوه ـ اخذ يضربه بعنف فصاح أبو جندل . أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى فجعل المسلمون يبكون لكلامه .

فرفع الرسول صوته وقال . يا ابا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك مخرجا وفرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهداً وانا لا نغدر .

ولما عاد إلى المدينة ، جاءه ابو بصير . ثم جاء رجال من مكة يطلبون رده حسب نص الشروط .

فقال أبو بصير للرسول اتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى .

قال النبى : يا ابابصير ، انا قد اعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا العذر ، وأن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين مخرجا وفرجا .

فلما مضى فى الطريق ، قتل الرجل الذى كان معه . فلما ردوه . قال يا رسول الله وفت ذمتك . وادى الله عنك . وقد اسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من ان افتن ويعبث بى ، او اكذب بالحق .

فاجاب الرسول هذه الإجابة القوية الحاسمة .

ويل امه محش حرب لو كان معه رجال .

ومضى ابو نصير . فاعتصم بالساحل ، وانضم إليه كل من آمن من شباب قريش . ومنعت المعاهدة رسول الله من قبولهم وظلوا يرقبون القوافل وينهبونها وتسلل إلى هذا المكان جميع المحبوسين فى مكة فاكتملوا سبعين رجلا . ضيقوا على قريش . فلم يظفروا بأحد الا قتلوه . ولم تمر عير دون أن يختطفوا منها

واضطر اهل مكة أن يسألوا رسول الله بالارحام ان يقبل هؤلاء .

ولما سبقت ناقته « الغضباء » لأول مرة . شق ذلك على المسلمين وقالوا كيف يسبق هذا الاعرابى ناقة رسول الله . فقال لهم النبى . إنه حق على الله الا يرتفع فى الدنيا شىء الا وضعه .

لست اريد ان اتحدث هنا عن زواج النبي ولا ازواجه وإنما اريد ان استخلص الجانب الإنسانى من حياته فى بيته .

يقول . خيركم خيركم لأهله ، وكان فى مهنه اهله حتى إذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة . وكان أحرص ما يكون على العدل بين زوجاته ، ويقول : اللهم هذا قسمتى فيما املك . فلا تلمنى فيما تملك ولا املك .

ولما مرض واشتد عليه الوجع ارسل إلى نسائه اسماء بنت عميس يقول لهن . إن رسول الله يشق عليه أن يدور عليكن فحللنه .

وكان لا يحمل اهله ولا اولاده على اعناق الناس ، وكان لا يميزهم . وهو القائل . لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

ولما اقترب اجله قال . يا فاطمة بنت محمد ويا صفية بنت عبد المطلب . اعملا لما عند الله ، لا املك لكما من الله شيئاً .

ويوم مات ابنه ابراهيم قال له وهو فى سكرات الموت : انا يا ابراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً . واشتكت فاطمة ذات مرة ما تلقى من الرحى . وكان قد بلغها ان رسول الله جاءه سبى كثير ، فاتته تسأله خادما فلم توافقه ، فذكرت ذلك لعائشة . تقول فاطمة ، فاتانا وقد دخلنا مضاجعنا ، فذهبنا لنقوم قال . على مكانكما . حتى وجدت برد قدميه على صدرى .

قال الا ادلكما على خير مما سألتمانى . إذا اخذتما مضاجعكما فكبرا الله ثلاثا وثلاثين . وسبحاه ثلاثا وثلاثين ، واحمداه ثلاثا وثلاثين فان ذلك خير مما سألتماه . وفى رواية انه قال . لا اعطيك وادع اهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع . ونادت ابنته زينب امام المسجد ، والمسلمون فى الصلاة . قالت إنى جرت العاص بن الربيع فلما انفتل من الصلاة قال هل سمعتم ما سمعت قالوا نعم قال إن المسلمين يجير عليهم ادناهم .

ودخل مرة على فاطمة فوجد فى يدها سلسلة من ذهب. وهى تقول لامرأة عندها . هذه إهداها إلى ابو الحسن

فقال يا فاطمة ايسرك ان يقول الناس ان ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ثم خرج ولم يعد . فباعت السلسلة واشترت بها عبداً فاعتقته .

ولما وقع حادث الافك لم يزد إن قال لعائشة قد بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة يبرئك الله وإن كنت الممت بشيء مما يقول الناس فاستغفرى الله . ووقع لعائشة ان اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله قام على الباب . فلم يدخل . فعرفت فى وجهه الكراهية . فقالت . يا رسول الله اتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا اغضبك قال فما بال هذه النمرقة . قالت اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها .

فطلب إليها ألا تدعها فى البيت .

وروى ان نساء الرسول كن يراجعنه حتى يظل يومه غضبان .

ولقد اراد عمر ان لاتراجعه زوجه فقالت له : ما تريد ان تراجع انت وان ابنتك حفصه لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان . فذهب إليها يسألها : فقالت والله أنا لنراجعه وقدلقى رسول الله الكثير من المشقه من أمر نسائه وهو القائل « إن النساء خلقن من ضلع اعوج فاذا ذهبت تستمع به فاستمع به على عوج ، وإن اعوج ما فى الضلع اعلاه . يعنى الرأس .

وكانت عائشة تغار من ذكرى خديجة وهى متوفاة ، وتضيق بأكرام النبى لذكراها حتى قالت له ذات مرة : وما تذكر فى عجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خير منها فاسكتها قائلا : والله ما ابدلنى خيراً منها : صدقتنى حين كذبنى الناس وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها وقد بلغ من امر عائشة فى ذلك ما بلغه ، حتى إنه حين حمل إليها ابنه ابراهيم من مارية القبطية وقال لها انظرى إليه . انه يشبهنى فما لبثت إن قالت : ما

أرى شيئاً مما تقول .

وقد تآمرن عليه . فاضطر النبي إلى اعتزالهن شهراً لا يجلس إليهم ولا يكلم احداً فى شأنهن وكان يقضى اوقاته فى خرانه له ذات مشربة لا يصعد الصاعد منها إلا على جذع نخلة خشنة الدرج .

فلما انقضت فتره الشهر ، بدأ بعائشة وظن أنها ستلقاه بلقاء الاعتذار أو التكريم ولكنها ما لبثت ان قالت له : يا رسول الله اقسمت أن لاتدخل علينا شهراً ، ودخلت وقد مضى تسع وعشرون يوماً .

فأجاب صلى الله علية وسلم فى بساطة : إن الشهر تسعة وعشرون يوماً

وكان يقول لها إنى لا علم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى

قالت من أين تعرف ذلك قال : إذا ما كنت عنى راضية تقولين ورب محمد وإن كنت على غضبى قلت ورب ابراهيم .

ولكنه كان صلى الله عليه وسلم رفيقا بهن ، حانيا عليهن ، يفتقدهن بعد صلاة العصر ، ويمر على منازلهن جميعاً .

اختلف مع عائشة مرة ، وطلب إليها أن تحكم من تشاء . ودخل ابو بكر فقالت تحكمه فما إن مضت تسرد قصتها حتى قالت للنبى أنت . فغضب ابو بكر ولطمها وانتهرها فنهض النبى يحجزه عنها . فلما مضى : قال لها ارأيت كيف انقذتك من الرجل .

وكان غاية فى بساطة الطبيعة الإنسانية ، لا يحجزه عنها ولا يحول دونها انه نبى مرسل تقول عائشة :كان لسودان يلعبون فى يوم من أيام العيدبالدروق والحراب فقال إن كنت اشتهى أن انظر قلت نعم قال فاقامنى وراءه ، خدى على حده وهو يقول : دونكم بنى ارفده .

حتى إذا مللت قال حسبك . قلت نعم قال فاذهبى .

وكان يبلغ به هـذا الطابع الإنسانى غايته فى البساطة واليسر أن يداعب نسائه ويسابقهن .

تقول عائشة : خرجت مع النبى فى بعض اسفاره وانا جارية لم اكن احمل اللحم فقال صلى الله عليه وسلم للناس تقدموا تقدموا . ثم قال لى تعالى اسابقك فسابقته فسبقته فسكت حتى إذا حملت اللحم ، وكنا فى سفرة أخرى قال للناس تقدموا ثم قال تعالى حتى اسابقك فسابقته فسبقنى .

فجعل صلى الله علية وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك .

ولما نزلت الآية الكريمة « يا أيها النبى قل لازواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن لله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيما »

فلما نزلت هذه الآية جاء النبى عائشة وقال : إنى اريد ان اعرض عليك امراً احب الا تعجلى فيه حتى تستشيرى ابويك .

قالت : ما هو يا رسول الله . فتلا عليها الآية .

قالت : افيك يارسول الله استشير ابوى ، بل اختار الله ورسوله والدار الآخره . ولم يبق له من أبنائه قبل وفاته غير فاطمة . فلما غلبه الوجع جاءته فاسر اليها شيئاً فبكت ثم اسر اليها شيئاً فضحكت .

قال لها فى الأولى : لا ارانى الا ميتا فى مرضى هذا .

ثم قال لها فى الثانية : إنت اسرع اهلى لحاقا بى .

كان رسول الله مثلا اعلى للرجل الاجتماعى اللبق .

وبرز فى آداب المعاشرة واللباقة ولطالما قال : إنى لست ارضى لكم ما اسخطه لنفسى ، ولم يفقه متفوق فى حسن مقابلة الناس والاجتماع بهم ، وكان مثالا عاليا للنظافة والتزين والتجمل ، وقد أوصى بها : اغسلوا ثيابكم وخذوا

من شعوركم واستاكوا ، وتزينوا ، وتنظفوا » .

وجمع إلى ذلك دقة الاحساس الاجتماعى فى صلة الرجل بزوجته فقال : إذا دخلت ليلا - يقصد من السفر - فلا تدخل على اهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة . . الكيس ، الكيس . .

وتلك براعه الفاهم الحصيف لعلاقات الرجل والمرأة .

وكان حريصا على ان يقرع بين نسائه اذا خرج فى سفر فايها خرج سهمها خرج بها ، حتى لا يغضب احداهن .

ونفدت بصيرته الاجتماعية الفاهمة إلى ادق الأمور التى تقوم بين الرجل والمراة فاثر عنه انه قال للمرأة التى تختن الجوارى : يا ام حبية إذا فعلتى فلا تنهكى فانه اسرى للوجه واحظى عند الزوج .

كان النبي حفيا باصحابه وأنصاره وتابعيه يرعاهم ويحفظ ودهم، ويكرمهم ويعرف سرائر انفسهم ويعاملهم فى حدود ما يحبون . دون أن ينقص ذلك من عظمة الرسالة التى يدعو اليها .

وقد بلغ فى رعاية اصحابه مبلغا عرف به ، وكان اصحابه يحبونه غاية الحب يقول بديل ابن هشام : يا قوم وفدت على كسرى وهرقل و النجاشى ، وانى ما والله رأيت ملكا اطوع فيمن هو بين ظهرانية من محمد فى اصحابه والله ما يشدون اليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه الا ان يشير الى امرىء فيفعل .

وقد رأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم .

وكان صلى لله عليه وسلم يقول : من مات وترك مالا فلاهله ، ومن ترك دنيا فعلى . وهو القائل . ما صاحب لمسلم صاحبا ساعة من نهار الا سأل عن عن صحبته يوم القيامة .

لما جاءوا اليه بحاطب ابن ابى تبعة الذى استأجر المرأة ، وكتب لها الى قريش تخبرها بمسير الرسول اليهم فى فتح مكة . كان اصحابه . يرغبون فى أن يأمر بقتله . وكان عمر أشدهم على الرجل .

غير أن رسول الله عفا عنه ، وقال فيما قاله : ما يدريك يا عمر ، لعل ان اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ولما دخل المدينة كان كل جماعة يرغبون فى أن ينزل الرسول عندهم ، فيكون لهم فضل السبق فى ضيافته . غير أنه يبعد نظره . ترك لدابته حطامها وقال : دعوها فانها مأموره حتى بركت فى سفح بيت النجار . حيث اقام مسجده

وكان لا يحب أن يجبه اصحابه وأنصاره بما يكرهون حتى يحتاط للامر ويتدبره . لما نقص بنوقريظه عهدهم ارسل سعد بنمعاذ وسعد بن عبادة وقال إن كان حقا ما بلغناعن القوم فالحنوا لنا لحنا اعرفه ولا تفتوا فى عضد الناس وإن كان الوفاء فاجهروا .

رجاءه عبد الله بن ابى بن سلول . وأبوه من أ كبر من وقفوا فى وجه النبي ، وكادوا له وكان ابنه مؤمناً .

قال : يا رسول الله بلغنى انك تريد قتل أبى ، فيما بلغك عنه ، فان كنت لا بد فاعلا فمرنى به ، فانا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالده منى وإنما اخشى أن تأمر به غير فيقتله . فلا تدعنى نفسى انظر إلىقاتل ابى يمشى فى الناس فاقتله ، فاقتل مؤمنا بكافر فادخل النار

وابتسم الرسول وقال له بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا .

* * *

وكان يعامل اصحابه وفق ما يستطيعون وما يطيقون .

تقول عائشة دخل أبو بكر على رسول الله وهو مضجع ، وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله فقالت له عائشة انك لم تصنع هذا بأحد .

قال ان عثمان رجل جيى وإنى حشيت أن اذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ الى فى حاجته .

وفى مرة أخرى استأذن رجل على رسول اللهقالت : عائشةفقال بئس ابن العشيرة ثم اذن له . فلم انشب أن سمعت ضحك النبي معه فلما خرج الرجل

قلت يارسول الله قلت ما قلت ثم لم تنشب ان ضحكت معه .

فقال : إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره .

وهذه غاية الحكمة فى مداراة الناس .

وكان يحفظ اصحابه من أن يذهب بهم الشيطان مذهباً .

جاءت صفية تزوره فى المعتكفه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبى يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد مر رجلان من الأنصار فسلما عليه فقال لهما : على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيى قالا : سبحان الله يارسول الله .

فقال النبى إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وانى خشيت أن يقذف فى قلوبكم شيئا .

وكان غاية فى الصراحة . لما بايع له المسلمون من أهل يثرب . قال لهم انى أريد أن تمنعونى مما تمنعون منه نسائكم واطفالكم .

وهو إلى هذا الود والحب كان غاية فى النظام والسداد .

نادى فى المسلمون . من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة فركبت الناس وقصدوا إلى قريظة ، وصلى جماعة منهم العصر فى الطريق ، وصلى جماعة منهم فى بنى قريظة . واختلفا فى تفسير قول رسول الله فاستمع منهم وابتسم ولم يقل شيئاً .

وكان المسلمون أحياناً يتشددون معه فيترفق بهم ويبدى من الحلم غايته .

عندما وصل المسلمون إلى الحديبية وعقد الصلح ، كانوا كارهين له .

قال النبى وهو يملى : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم قال سهل : اكتب باسمك اللهم فلما قال هذا ما اتفق عليه رسول الله . رفض

وقال : لو اعلم أنك رسول الله ما خالفتك فاكتب اسمك واسم أبيك .

فوقف اسيد بن حضير وسعد بن عبادة وامسكا بيد الكاتب .

وقالا لا تكتب إلا محمد رسول الله . والا فالسيف بيننا ، علام نعطى الدية عن ديننا فجعل رسول الله يخفضهم ، ويومىء إليهم بيده .

وبعد أن عقد العقد . تجمع حوله المسلمين وقال أحدهم : يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين . وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ...

فقال الرسول فى بساطة : قلت لكم فى سفركم هذا .

قالوا ـ لا ـ قال أما انكم ستدخلونه ، وأخذ مفاتيح الكعبة وأحلق رأسى ورؤسكم فهذا حق . وأخذ الرسول يأمر الناس بأن ينحروا ويحلقوا ويحلوا ورددها ثلاث مرات فلم يفعلوا .

فدخل ختمية على أم مسلمه وهو شديد الغضب وقال

إنى قلت للناس انحروا وحلقوا واحلوا مراراً فلم يجبنى أحد من الناس وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى .

قالت أم مسلمة : انطلق انت إلى هديك فانحره ، فانهم سيفعلون مثل ما تفعل فاضطبغ بثوبه وخرج ، وأخذ الحربة ، ويمم هديه ، وأهوى بالحربة على البدنه رافعا صوته : الله اكبر : فتواثب الناس وازدحموا عليه ينحرون .

وكان آية الآيات فى حب اصحابه وأعدادهم للجهاد .

قال فى خيبر: لا يخرج معى إلا الراغبين فى الجهاد أما الغنيمة فلا .

وقال : لاعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسول ، ويفتح على يديه . فبات المسلمون كل يمنى نفسه بأن يكون هو .

وكان يقول عن المتخلفين من أصحابه الذين منعهم ما يحملهم عليه إن فى المدينـة أقواما ما سرتم مسيراً ولا هبطتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر أو قال حبسهم المرض .

وكان يرفع الروح المعنوية لنفوس أصحابه .

لما دخل والمسلمون معه فى عمرة القضاء ترك أهل مكة مساكنهم وصعدوا إلى رؤوس الجبال اضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، حتى واخرج عضده اليمنى ، ثم قال رحم الله امرؤاً اراهم اليوم من نفسه قوة ، حتى انتهى إلى البيت وهو على راحلته وابن رواحه اخذ نزمامها .

وقد صف له المسلمون، فلما دنا من الركن استلمه بمحجنه،وهو مضطبع بردائه ثم هرول وهرول معه المسلمون الاشواط الثلاث الأولى .

وكانت قريش تقول إن حمى يثرب انهكتهم .

وفى الحرب يقول : أمير المؤمنون زين بن حارثة فان قتل فجعفر ابن ابى طالب فان اصيب فعبد الله بن رواحه . فان اصيب فليرتضى المسلمون من بينهم رجلا فيجعلوه عليهم . ولما مات جعفر دخـل على اسماء بنت عميس زوجته فقال يا اسماء اين بنو جعفر فجاءت بهم إليه وشملهم ، ثم زرفت عيناه فبكى

قالت بابى يارسول الله : لعله بلغك عن جعفر شيء قال نعم : قتل اليوم فقامت تصيح . فقال يا اسماء لا تعولى هجراً ولا تضربى صدراً .

ودخل على فاطمة يقول : اصعوا لآل جعفر طعاما . فقـد شغلوا عن انفسهم اليوم . وكان لا يفرض على المسلمين رأيا . وإنما يقول : إن شئتم إن أردتم . جاءه وفـد وازن . قالوا إنما فى الحواظر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك .

قال النبى : إن احسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين ،

فأبناءكم ونساءكم احب اليكم أم أموالكم . قالوا ، بل ابنائنا ونسائنا .

قال أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، واسأل لكم الناس ، فاذا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا انا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فانى سأقول لكم : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وسأسأل لكم الناس فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا . وأجاب الرسول فقال المهاجرون فما كان لنا فهو لرسول الله . وقالت الأنصار كذلك .

ولما خرج المسلمون فى بدر ، وكان فيهم الأنصار والمهاجرين . أراد أن يعرف رأى الأنصار فقد كان اتفاقهم أن يعصموه فى حـــدود بلدهم ، ما اليوم وهم فى بدر فلا بد من استشارتهم قال الرسول : اشيروا على أيها الناس .فقام أبو بكر وعمر . وغيرهما من المهاجرين فتحدثوا .

وما زال الرسول يكرر . اشيروا على ايها الناس .

فقام سعد بن معاذ وقال : وكانك تعنينا يا رسول الله قال نعم .

فايد موقف الرسول .

ومن أ بلغ المواقف الت [illegible] فيها صلى الله عليه وسلم مع اصحابه موقفه من الأنصار بعد أن وزع غنـ[illegible] حنين : إذا اعطى المسلمين الذين خرجوا معه بعد فتح مكة عطاء وافراً فوجد الأنصار فى انفسهم وقالوا لقى رسول الله قومه . أما حين القتال فنحن أنصاره ، اما حين يقسم فقومه وعشيرته .

فغضب الرسول ودخل على سعد بن عبادة فقال : إجمع لى قومك فى الحظيرة .. ووقف فيهم محدثا :

يا معشر الانصار ما قاله بلغتنى عنكم ، و[illegible]ده وجدتموها فى انفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله . وعالة فاغناكم لله ، وأعداء فالف بين قلوبكم .

الا تجيبوا . . والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم . أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك . . وعائلا فآسيناك . . وخائفا فآمناك ..

وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شىء من الدنيا تألفت به قوما اسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم .

الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحلهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم .. والذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار .

اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

وكان إذا خرج فى غزوه ورى بغيرها ، وكان يكتم خبرها أحيانا عن أقرب الناس إليه : أبو بكر وعائشه ..

ولما مضى من ثنية الوداع فى غزوه تبوك تخلف عنه قوم فكان الناس يقولون : يا رسول الله تخلف فلان ..

فيقول فى سماحته .. دعوه فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وعجزت عير أبا ذر ، فحمل متاعه على ظهره وسار ماشيا فى حر شديد وحده ، حتى لحق رسول الله نصف النهار فلما رآه النبى قال : ما خلفك . . إن كنت عن أعز أهلى على تخلفا .. فقص عليه أمره فقال : لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنبا إلى أن تبمتنى . . وكان يقول : والله إنى لاعطى الرجل وأدع الرجل والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ولكنى أعطى أقواماً أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ..

ولما جاءه أصحابه وقد ضاقوا بأن فاتهم الصلاة . هدأ خاطرهم وطمأن بالهم وقال لهم : إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء ..

وحين ضاق الناس بحفر الخندق ، وأحسوا بأن القبائل ستحاصرهم .. طمأنهم ورفع من أقدارهم ونفسياتهم .. ضرب الحجر بفأسه ثلاث مرات وهو يكبر في كل مره : قال في الأول رأيت قصور اليمن ، وفي الثانية قصور الشام وفي الثالثة قصر كسرى الأبيض وجعل يصفه لسلمان الفارسي وسلمان يقول : صدقت .. والذي بعثك بالحق أن هذه لصفته وإشهد أنك لرسول الله ..

وعجم عيدان أتباعه ودرس خصائصهم ، وميزهم على قدر عزائمهم ، وأرسل على رؤوس السرايا رجالا فيهم مناعة خاصه .

قال لعبد الله بن جحش عند ما أرسله على رأس السرية : إني استعملتك على هؤلاء النفر فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض لأمري فيمن اتبعك ، حتى تأتي بطن نخله ، ترصد بها عير قريش . وتحدث فيهم فقال : إني استعملته عليكم لأنه أصبركم على الجوع والعطش وفي هذه التوصية معان ، أوامر مختومة تفض في أماكن معينة ، امتحان للرجال لا اكراه فيه ، ثم تقدير لأمير فيه صفة خاصة من الصبر على الجوع والعطش ، ثم عمل منظم .

وكان يبث عيونه وارصاده في كل مكان ، فيعلم الأمور قبل وقوعها فيواجه خصومه قبل أن يستعدوا له .

وبلغ من حرصه وحيطته ، من غدر قريش ، ان جهز مائة فارس في عمرة القضاء فجعل على رأسهم محمد بن سلمه وبعثهم طليعة له على ألا يتخطوا حرم مكة . إذا غزا قوماً خرج في رجاله فلا يظهر وجهاً ويغذ السير ولا يغير حتى يصبح فان سمع اذناً أمسك ، وان لم يسمع أغار

وكان كلفاً بالجهاد . يقول لولا أن اشق على أمتي ما قعدت خلفه سرية

تغزو فى سبيل الله . ولو ددت أن قتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل أيا ثم ثم أقتل .

وكان يطمئن أتباعه وتبعث فى نفوسهم الأمل : يقول العمر . فان طالت بك حياة قلسرين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة . لا تخاف أحداً الا الله .. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضه يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه ولا يمنع هذا من أن يقول لخباب قولا آخر .

يقول خباب . شكونا الى النبى وهو متوسد برده فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شده . فقلت ألا تدعوا الله فقعد وهو محمر وجهه وقال : كان الرجل فيما كان قبلكم يحفر له فى الأرض . فيجعل فيه فيجاء بالمنشار ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه من عظم . وعصب . ما يصرفه ذلك عن دينه .. والله ليتمن الله هـذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

وكان يحرص دائما على مكانة أصحابه منه : ليلتنى منكم أولوا الأحلام والنهى وكان حدبه على أتباعه حدبا عجيبا . وفى غزاه ما . مر من مضيق فوقف لاصحابه حتى يمرو وهو ينفح ظهورهم ويقول : مروا باسم الله . اللهم أحمل عليهم فى سبيلك فانك تحمل على القوى والضعيف . والرطب واليابس والبر والبحر والى هذا كان قويا فى حق الله ، لا يحامل ولا يوارى .

يقول : والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب يحطب . ثم آمر فيؤذن لها ثم أخالف الى بيوت فاحرقها على أصحابها .

كان أصحابه يحبونه غاية الحب ، حتى يبلغ من حب أبى أيوب أن يكبر عليه أن يقيم بالدور الأعلى ورسول الله فى الدور الأرضى عنـــد قدومه إلى المدينة .

يقول : لما نزل رسول الله فى بيتى نزل فى الأدنى ، وأنا وأم أيوب فى الأعلى ، فقلت له يارسول الله بأبى أنت وأمى ، إنى لا كره وأعظم من أن أكون فوقك ، وتكون تحتى فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال يا أبا أيوب : أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت

ولقد انكسر جب لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا من أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه .

ورفض عثمان أن يطوف بالبيت قبل رسول الله — عندما بعث الرسول إلى أهل مكة فى الحديبية . . إذ قالوا له يا عثمان أن شئت أن تطوف بالبيت فطف قال ما كنت لا فعل حتى يطوف رسول الله .

وتطوى أم حبيبه أبنة أبى سفيان زوج النبى فراش رسول الله عن أبيها فلما سالها : أطوته رغبة بابيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها .

قالت : هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه فلم يزد على أن أجاب : لقد أصابك بابنيه بعدى شر كثير .

وترس أبو دجانه من رسول الله بظهره فى موقعه (أحد) والنبل يقع من كل مكان وهو يتحرك .

ولما أعتقل المشركون خبيبا ، قالوا له اتحب أن محمداً مكانك وأنت

جالس فى بيتك . فيقول والله ما أحب أن تشوك محمداً شوكة وهو فيكا منه ؟ فلما هدده بالقتل ، قال والله أن قتلى فى الله تعليل ، فجعلوا وجهه من حيث جاء ، فقال ما صرفكم وجهى عن القبلة ، ودار بوجهه وقال اللهم انى لا أرى الا وجه عدو اللهم ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام ، فبلغه أنت عنى السلام .

وبلغ من أتباع رسول الله له أن كانوا يرون رأيه فى كل أمر هو الرأى. لما غنم المسلمون بنى النضير ، بعث رسول الله الى الأنصار ، وخطبهم وذكرهم بما صنعوا بالمهاجرين ، وانزالهم أياهم فى منازلهم وايثارهم على أنفسهم .

ثم قال أن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على بنى النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم . فيقول سعد بن عباده وسعد بن معاذ يارسول الله بل تقسم للمهاجرين وتجعلهم فى دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا برسول الله وبات على مسجى ببردة الاخضر فى فراشه ليلة الهجرة .. دون أن يبالى ما يقع له .

وكان أبو بكر يحب أن يستاذن الرسول فى الهجرة ، فيرجئه الرسول ، ويقول له أنتظر لعل الله يجعل لك صاحبا .. فاشترى دابتين وأعدهما ، حتى جاءه رسول الله فى ساعة متاخرة كان لاياتى فيها فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله هذه الساعة الا لأمر حدث ..

فقال رسول الله : أخرج عنى من عندك

قال : يارسول الله هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى

ــ ان الله قد أن أذن لى فى الخروج وفى الهجرة

ــ الصحبة يارسول الله

ــ الصحبة

قالت إبنته فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن احداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ

قال الصديق يا نبى الله : هاتان راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فانطلق هو ورسول الله إلى غار ثور ، وقدم الناس الرسول عن أهليهم دون أن يترددوا عاد مصعب بن عمير الى مكة فبدأ برسول الله فارسلت اليه أمه تقول : اتقدم بلداً أنا فيه ، لا تبدأ بى ، فقال : ما كنت لابدأ بأحد قبل رسول الله ، فخاصمته ولكن كان مقتنعاً بان رسول الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأهليهم

وكان أبو بكر يكبر أخوة الرسول حتى أنه حين عرض عليه الزواج من إبنته طفق يسأل : هل يجوز له يزوج ابنته للرسول وهو له أخ ...

وكان امره مع خصومه غاية من العجب . فقد سمت انسانيته صلى الله عليه وسلم عن الانتقام والإساءه ورغب فى أمرهم إلى العفو دائما .

سمع عائشة يوما تقول عن يهودى : قاتله الله . فغضب وقال : إن الله لا يحب القول الغليظ ولما مات عبد الله بن ابى ذهب يصلى عليه تصدى له عمر يقول : يا رسول الله اتصلى على ابن ابى وقد كان من امره كذا يوم كذا ومن أمره كذا يوم كذا .

قال النبى . اخر عنى يا عمر . فانى خيرت فاخترت ، وقد قيل لى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . أن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فلو أعلم أنى أن زدت على السبعين غفر لهم لزدت . ونزل عليهن ، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً وكان يقول لأصحابه من المنافقين : انتم والله أحب الى من الماء على الظمأ . وعندما دخل المسلمون مكة كلم عمر الرسول فى أن ينزع ثنية سهيل بن عمرو حتى لايقوم خطيباً على المسلمون أبدا فقال الرسول والله لا أمثل به ليمثل الله بى ولو كنت نبيا . ولعله يقوم مقاما لا تكرهه فلما ارتدت العرب وهم أكثر أهل مكة ، وخافهم عتاب بن أسيد عامل النبى قام سهيل فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة النبى وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأينا ضربنا عنقه .

وكان رأى الرسول فيه أبعد حكمه من رأى عمرو ، فقد أدت بلاغته بعد أن أسلم إلى تعزيز أمر المسلمين . ولما أقبل فاتحا لمكة جاءه أبو سفيان .

قال للعباس دعوه يقف على رأس الطريق ايرى موكب المسلمين . فلما رآه اثنى يقول للعباس لقد أصبح ملك ابن أخيك الفتاة عظيما .

وأسرع فذهب إلى الرسول وأسلم . وكان النبى يعرف أنه يحب الفخر .

فقال . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

ولما علم صفوان ابن أمية أن الرسول دخل مكة ، ذهب ليقذف بنفسه في البحر وكان الرسول قد أمر بأن من يلقاه يقطع عنقه .

فذهب عمير بن وهب يطلب له الأمان فأمنه الرسول .

فقال أعطني آية . اعرفه بها أمانتك فاعطاه عمامته التي دخل بها مكة .

فادركه عمير وهو يريد أن يركب البحر فناداه . يا صفوان فداك أبي وأمي الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا آمان رسول الله جئتك به .

قال فاني اخافه على نفسي .

قال هو أحكم من ذلك وأكرم .

فوقف صفوان على رسول الله وهو وقال : إن هذا يزعم أنك أمنتني .

قال صدق قال فاجعلني بالخيار شهرين ، قال فانت بالخيار أربعة أشهر .

وجذبه الأعرابي من برده الجراني غليظ الحاشية جذبه أثرت في عنقه ثم قال يا محمد مر لي من الذي عندك . فالتفت اليه رسول الله ثم ضحك وأمر له بعطاء وبينما هو عائد من خيبر اضطره الأعراب إلى شجرة وخطفوا رداءه وقف النبي وقال اعطوني ردائي ، لو كانت عدد هذه العضباء نعما لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

وأذن للناس صلى الله عليه وسلم فكان آخر من دخل عليه أبا سفيان بن حرب فقال يا رسول الله قد أذنت الناس قبلي حتى ظننت أن حجارة الخندمة ليؤذن لها قبلي .

فقال الرسول : أما والله أنك والناس كما يقول الأول : كل الصيد فى جوف الفرا فابتسم أبو سفيان وسرى عنه . وذهب غضبه . .

ولما جاءه أبو بكر بأبوه بعد فتح مكة .. ابتسم وقال له : هلا تركت الشيخ مكانه حتى أكون أنا الذى آتيه فيه ..

وكان من رأى عمر .. أن يأمر الرسول بقتل عبد الله بن أبى بن سلول .. والرسول يقول : أتريدون أن يقول الناس أن محمداً يقتل أصحابه ..

وظل الرسول يترضاه .. فلما بلغه قوله .. إنما مثلنا ومثل هؤلاء القوم على حد قول القائل .. سمن كلبك يأكلك أما والله لو عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

جاء زيد بن أرقم وكان صغير السن يروجها لرسول الله .. فراجع الرسول الغلام طويلا

قال يا غلام لعلك غضبت عليه .. قال كلا والله

قال لعله أخطأ سمعك .. قال لا يا نبى الله

قال لعله شبه عليك .. قال لا والله

وظل عبد الله بن أبى يكيد للنبى كيداً خفياً حتى تحول عنه أصحابه ، فكان إذا أحدث أمراً عنفوه فقال الرسول لعمر يوماً .. كيف ترى ياعمر أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لارعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

قال عمر : قد والله علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا حزبه أمر أكثر من الصلاه . . وكان يتخفف للناس فى المسجد ويطيل فى الصلاه فى بيته . وكان إذا جاءه من له مصلحة قصر من صلاته ..

يقول عبد الله بن مسعود صليت مع النبي ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء ، قيل وما هممت ، قال هممت أن أجلس وادعه

ويقول عبد الله بن حذيفه بن اليمان ، صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقلت يركع بعد المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها ثم أفتتح النساء فقرأها ثم أفتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مرسلا فاذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر يتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال سمع الله لمن حمده . ربنا لك الحمد . ثم قام قياماً طويلا قريباً مما ركع . ثم سجد فقال سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه »

كان يخاف ربه . ويتقرب إليه . ويحب القرآن ويعكف عليه ويتأثر به . أبلغ الأثر . حتى أثر عنه قوله شيبتني هود واخواتها

ومن آيات إقباله على الله . أن دخل مكة ساجداً على بعيره وهو يردد لا إله إلا الله وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وخزل الأحزاب وحده

وإذا عاد من غزوة أو سفر قصد إلى المسجد . فصلى ركعتين قبل أن يدخل منزله .

وإذا عاد من موقعة كبر على كل شرف . وقال تائبون آيبون . إن شاء الله حامدون . لربنا عابدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

وإذا خرج إلى السفر قال اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل وإذا بنى مسجده ارتجز

اللهم أن العيش عيش الآخره فاغفر للانصار والمهاجره

وإذا حفر الخندق ارتجز

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الأقدام أن لاقينا

وإذا رأى المطر قال : اللهم صيبا نافعاً . وإذا خاف ضرره قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والأجام والظراب والأودية ومنابت الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك . ولا تهلكنا بعذابك ، وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام . ربى وربك الله ، هلال خير ورشد

ويقول للمسافر : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك

وإذا سرى بالليل مسافرا : قال اللهم أطوله الأرض وهون عليه السفر

ال جابر بن عبد الله أن الرسول كان يعلمنا الاستخاره فى الأمور

وكان إذا رأى ما يحب قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وإذا رأى وجهه فى المرآة قال : اللهم أحسنت خلق فاحسن خلقى و رم وجهى على النار

وإذا قال له أحد أصحابه : إنى أحبك قال أحبك الذى أحببتنى له

وإذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله

وإذا وقع له ما لا يختاره قال . قدر الله وما شاء فعل

و ذا استعصى عليه أمر قال . اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا

وإذا لبس الثوب قال . اللهم انى أسألك من خيره وفى خير ما هو له ، وأعوذ بك من شره ومن شر ما هو له

وإذا خرج من منزله : قال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله .

وإذا قدم إليه الطعام قال « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار

وإذا دخل فراشه قال « باسم الله ربى وضعت جنبى وبك أرفعه » وكان فى مواقف البأس يسأل الله ويدعو على خصومه

اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبه بن ربيعه ، وشيبه بن ربيعه، والوليد ابن عتبه وأميه بن خلف وابن أبى معيط وعماره بن الوليد

وفى مواقف الرحمة « اللهم أذقت أول قريش نكالا فأذق آخرهم نوالا »

« اللهم أغفر لقومى فانهم لا يعلمون »

وكان إذ يلجأ إلى ربه فى كل أمر ، يعبد الله عبادة القوى لا عبادة الضعيف . يدعوه فى بدر حتى يسقط ردائه ، فى الوقت الذى اصطفت فيه كتائبه للقتال فلا تنسيه العدة والسلاح حسن الإلتجاء إلى الله ، ولا يكتفى بالدعاء عن إعداد ما يستطيع من قوة ومن رباط الخيل يرهب به عدو الله ..

وكان يخاف ربه كل الخوف . . . . باتت معه أوقية من مال جاء إليه . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباءة . فجعل لا يأخذه النوم . فيرجع فيصلى

قالت عائشة « يا رسول الله هل بك شىء »

قال لا

قالت « أنك صنعت الليلة شيئاً لم تكن تفعله فاخرجها وقال هذه التى فعلت بى ما ترين . إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها

أردنا بهذه الفصول أن نصور الجانب الإنسانى فى شخصية الرسول ..

ونرسم صورة للنبى الإنسان ، حين لا يتصل الأمر بالوحى ، ويكون موكولا إلى رأيه واجتهاده وتصريفه للأمور ..

ونذكر فى هذا المجال كلمة أحد الأئمة المجتهدين فى هذا المعنى حيث يقول « أن الإجماع منعقد على عصمة الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، فيما يبلغون عن الله عز وجل ، وفيما يتصل بصميم الرسالة من قول أو فعل ، أما فيما يتصل باجتهادهم ، فجائز عليهم الخطأ والصواب فيه »

وقد عاتب الحق تبارك وتعالى النبى فى أمور ، عاتبه فى أسرى بدر . وعاتبه فى الأعمى وراجعه أصحابه فى أمور ، راجعه عمر فى أكثر من أمر ، ونزل على رأيه ، وراجعه الحباب فى بدر . وكان صلى الله عليه وسلم فسيح الصدر لرأى أصحابه يسمع منهم ، ويقبل آراءهم ، أو يردها .

وكان مظهره الإنسانى واضحاً غاية فى الوضوح فى كل تصرفاته وشمائله ، وكانت أحاديثه وأعماله مطابقة لهذا الروح الكريم الواضح ونستطيع أن نجمل هذه الشمائل فيما يلى :

(١) اتسم الرسول بالزهد فى الدنيا واكتفاءه بالقليل ، ولكنه ليس زهد الضعفاء أو زهد العجز والقصور وإنما زهد المالك فيما يملك إبتغاء مرضاة الله ، وقد أثر عنه قوله : مالى وللدنيا ، إنما أنا والدنيا كراكب أستظل بظل شجرة ثم مضى وتركها .

(٢) اتسم باليسر والبساطة فى لقاء الأمور وفى توجيهها ، إذا خير بين

أمرين اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، يمزح ويتفكه ولا يقول إلا حقاً . وكان إذا تصدق وضع الصدقة فى يد السائل ، وكان يركب ويردف خلفه .

(٣) عرف بتلطفه مع الأطفال والصغار ، والصبر على جفوة الغريب فى منطق رسالته ، لا يواجه أحداً بما يكره ويجيب دعوة الداعى ، ويعود المريض ، ويقبل العذر ، ويتجاوز عن المسىء ، ويعطى من منعه ويصل من قطعه . ويبذل لمن حرمه . ويغضى طرفه من الأذى وكان أجود من الريح المرسلة .

(٤) لم يستغفل فى مكيدة . ولم ينم عن مهمته لحظة من نهار أو ليل .

(٥) إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس . ويمد طرف ردائه لضيفه ويحلب شاته ويخصف نعله ويحب التيمن فى كل شىء . فى طهوره وترجله وتنقله .

(٦) صبر على الجاهل والمتعنت . ولقى الناس بحسن القول والإقناع . تنام عيناه ولا ينام قلبه . وإذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ .

(٧) يذكر الله فى كل حال . إذا استيقظ وإذا نام وإذا مشى . وإذا خرج من مسجده وإذا دخل المسجد . وإذا لبس وإذا خلع لباسه .

وكانت مواقفه مع أتباعه وأنصاره مضرب المثل فى هذا الخلق الإنسانى النبيل .

عن أبى زر : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى

قال فضرب بيده على منكبي وقال : يا أبا زر أنك ضعيف . وأنها أمانة .

وأنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها

وسأله الأمارة عبد الرحمن بن أبى بكره فقال : لا تسأل الأمارة فانك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسأله أعنت عليها .

ثم أضاف قوله : أنا لا نولى هـــذا العمل أحداً سأله ولا أحـداً حرص عليه .

* * *

وهذه لوحة أخرى . .

لما خرج من المدينة فى إحدى غزواته قال : من أحب أن يصوم فليصم . ومن أحب أن يفطر فليفطر . وصام هو حتى إذا كان بالعرج صب على رأسه ووجهه الماء من العطش . فلما كان بالـكديد بين الظهر والعصر . أخذ أناء من ماء فى يده حتى رآه المسلمون . ثم أفطر فى تلك الساعة. وبلغه أن قوماً صاموا فقال أولئك العصاه

وقال وهو فى حر الظهران .. أنـكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لـكم

* * *

ولوحة ثالثة تـكشف جانباً آخر من شخصية الرسول

جاءه مال من البحرين فقال أنثروه . وكان أكثر ما أتى به . فلما دخل المسجد « لم يلتفت إليه » .. ولما قضى الصلاه أخذ يوزعه

* * *

ووقف «على» بعد فتح مكة يقول . يارسول الله أجمع لنا الحجابه مع السقايه فلم يرد عليه . . ونادى « أين عثمان بن أبى طلحه . فلما جاء سلمه مفاتيح الـكعبة وقال هاك مفتاحك يا عثمان .. اليوم يوم بر ووفاء

وفى سكرات الموت . . خاف من تسبع دنانير كانت عنده . . وطلب أن يرفعوها من تحت وسادته وينفقوها . . وقال ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهى عنده . .

. . ومات ودروعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير

. . من هذه الصور التى جمعناها فى هذه الحلقة ، يبدو رسول الله فى أزهى صوره وأروع مظاهره . . الرسول الإنسان الوفى الذى يحب أصحابه ولا يخشى فى الله لومة لائم

والذى يزهد المال والدنيا فيقول : مالى وللدنيا . . ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها . . »

صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً . .

أعلام الاسلام

« الباقة الثانية »

معاوية	الجنيد	سعد بن ابى وقاص
المنصور	ابن حزم	طارق
الرشيد	صقر قريش	فتية بن مسلم
الحجاج	أبو مسلم	عقبه بن نافع
الناصر	منذر بن سعيد	أبو عبيده
الحاجب المنصور	عز الدين عبد السلام	محمد بن القاسم الثقفى
نور الدين	المثنى بن حارثه	محمد الفاتح

(١) قدمنا الباقة الأولى من « أعلام الإسلام » فى ابريل سنه ١٩٥٤ وهى دراسة لـ ١٨ شخصية إسلامية

معـــاوية

لا يستطيع أحـد أن ينـكر أن « معاوية » علم من أعلام الإسلام حفر اسمه فى سجل التاريخ . فقـد أمضى اكثر من أربعين عاماً يحكم الشام . حاكما وخليفة . ومهما قيل عن أسلوبه ومرونته فانه لون من ألوان البطـــولة الاسلاميـة فى تطورها بعد النبوة وانتقالها من مرحلة الخلافة الراشـدة التى تتمثل فى عمر وعلى إلى مرحلة الملك والسلطان

أن الخلاف الذى بين شخصية على وبين شخصية معاوية هو خلاف طبيعى فليس فى تاريخ أى حقبه مهما تقاربت بطولات متماثلة فان بين أبو بكر وعمر خلاف على الرغم من أنهما عاشا فى عهد واحد وتلقيا من معين واحد هو الرسول

أن « على » كان يعيش فى صورة أبى بكر وعمر وهى صـورة أربعين عاماً مضت منـذ انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . أما معاوية فكان يعيش فى الواقع . فى الزمن الذى تطور بعد أن ترك عثمان كبار الصحابة يسيحون فى الأرض ويكونون الثروات

وقد انتصر معاوية على على لا لأن الواقع كان لا بد أن ينتصر فحسب بل لأن فى شخصية معاوية من أساليب السياسة والمرونة ما جعله يستطيع أن يخدع ويساوم ويقوم بالمناورات وهو ما لم يكن فى استطاعه على أن يفعل مثله

ويقول معاوية أنى أعنت على « على » بأربع خصال كان رجلا لا يكتم سراً وكنت كتوماً لسرى وكان يسعى حتى يفاجأه الأمـــر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك . وكان فى أخبث جنـد وأشدهم خلافا وكنت أحب إلى قريش منه

* * *

والحق أن معاوية أوتى شخصية بارعـة غاية البراعة وصفها هو فى قوله

كأنما بيني وبين الناس شعره إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها . ولقد كان معاوية يستلهم ما يسمى بالمعرفة النفسية ومداخل القلوب . ويعرف مقاتل الناس والنغمة التي يحبونها . وكان يستعمل ذكائه على أوسع نطاق فى كسب القلوب وقد كان للمال ولا يزال سحر خطير فى ذهاب الخصومات وإحلال الود محل البغض . ولم تكن عاطفة القلوب المجردة لتكفى الناس فى ذلك الزمن الذى تفشت فيه المطامع .

وقد استطاع معاوية بأسلوبه وحكمته ومرونته أن يوطد الملك لبنى أمية أكثر من مائة عام . وكان يقتسم السلطة بينه وبين حكامه فيقول لزياد والى العراق : لا ينبغى أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا .

وكان ينخدع أحياناً للناس حتى يرى كأنه مصدق لما يقولون وذلك كسباً لقلوبهم وقد جاءه رجل من الكوفة فقال له أن داره قد حرقها واليه عبدالرحمن ابن الحكم وأنها بمائة ألف درهم وشهد له بذلك شيخ آخر فأمر له بها . فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم : أى الشيخين عندكم أكذب ! والله انى لا أعرف داره وما هى إلا خصائص قصب . ولكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع .

وقد استمال بدهائه الداهية الآخر : عمرو بن العاص ـ وكانت الصلة بينهما على أساس المنفعة وقد منحه هذه الكياسة والمرونة عشرون عاماً قضاها فى الولاية قبل الخلافة فى دمشق فاستتبت له الأمر وتمكن من القلوب .

وهو أول من اتخذ الحرس والحجاب والقصور وحول الخلافة إلى ملك

وجعل ولاية العهد مشروعه من غير انتخاب وأخذ البيعة قسر آلإبنه يزيد

ووصفه عمرو : بقوله « فتى من قريش يضحك في الغضب ولا ينال ماعنده إلا على الرضى ولا يأخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه .. »

وقد عرف عن معاوية أنه كان جميل الصورة . حلو الحديث . هادىء السمت . أنيقاً . لا يغضب مهما حاول محدثه إغضابه . لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ولا يضع سوطه حيث يكفيه لسانه . وقد اتخذ كل وسيلة إلى توطيد ملكه وسلطانه . وكانت شربة العسل التي يقدمها قضاءاً على خصمه حتى عرف عنه قوله « أن لله جنوداً من العسل .. »

وكان يومه عجباً فهو إذا انفتل من صلاة الصبح جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل فيفتح مصحفه ويقرأ ثم يدخل إلى منزله فينظر في بعض أمره ، ثم يصلى أربع ركعات وفي الضحى يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصته فيحدثهم ويحدثونه . ويدخل عليه وزراءه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى . ثم يؤتى بالغداء الأصفر وهو فضله من عشائه من جدى بارد أو ما يشبهه . ثم يخرج كرسيه إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسى ويتقدم إليه الناس : الضعيف والإعرابى والصبى والمرأة فيقول واحد ظلمت فيقول أعزوه . ويقول آخر عدى على فيقول ابعثوا معه، ويقول ثالث صنع بي . فيقول أنظروا في أمره . حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام فيدخل الناس فيقول لهم ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا »

ثم يؤتى بالغـــداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه فيمد يده فيأ كل لقمتين أو ثلاثا والكاتب يقرأ كتابه ثم يرفع الغداء .. وينصرف إلى منزله

فلا يطمع فيه طامع حتى يخرج فيصلى العصر ثم يخرج فيجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ويؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ماينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخفت أخرى ثم يدخل منزله حتى ينادى للعشاء الآخره فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء صدراً من ليلتهم ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب أيامها وملوكها وسياستها لرعيتها .

ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل . ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر التى فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون .

وهكذا يطوى يومه فى أعمال الملك . وقد أعانته حكمته وذكائه وتجاربه وقراءاته على أن يدبر الملك ويرضى الناس ويحسن التصرف . وقد ارتفع بالدولة فى أيامه فأنشأ الأسطول لأول مرة فى تاريخ الاسلام فى ألف وستمائة سفينة ورتب الشواتى والصوائف فى حصار القسطنطينية وخرج مرة معها . ورتب الغزو فبعث عبد الله بن سوار إلى السند والمهلب بن أبى صفره إلى لاهور . وجدد شباب الدولة الاسلامية .

وبعد فمعاوية شخصية ضخمة لا شك فى أنها حفرت اسمها بحروف من نار فى تاريخ أعلام الاسلام .

المنصـــور

كان المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وكان من ألمع الرجال الذين حملوا على أكتافهم الحركة التى أطلق عليها الرضا من آل محمد والتى كانت تهـــدف إلى التخلص من حكم الأمويين والذين تحقق لهم فيما بعد أن يقيموا هـذا السلطان الجديد وأن يشترك فيه بجهـد ضخم بارز لا يمكن أن ينسى حين يذكر سلطان العباسيين فقد حكم اثنين وعشرين عاماً ، وطد فى خلالهـا الملك لأولاده وأحفاده ، وقضى على خصوم الدولة ، وبنى المدن وأنشأ القصرر وجمع المال

وقد عرف المنصور بالرجولة القوية القاسية التى لاتعرف اللهو ولاالترف وكان أسمر اللون نحيفاً خفيف العارضين وقوراً يلبس الخشن من الثياب ، حسن الخلق فى الخلوة ومن أشـد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح فاذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وتغيرت جميع أوصافه حتى لقد روى عنه أنه قال لبنيه « إذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت إلى المجلس فلا يدنين أحد منى مخافة أن أصيبه بشىء .

ولقد كان بخيلا لا يبسط يده بدرهم واحد فى غير موضع ، وكان يحاسب رجاله على المال القليل والوفير حتى سمى « أبى الدوانيق » مؤمناً بأن من قل ماله قل رجاله ومن قل رجاله قوى عليه عدوه ، وكان لا يعطى إلا إذا كان فى العطاء رجاء

وقد مكنته طبيعته هـذه الجافة الجادة الصارمة من بناء الدولة الجـديدة وأعانه على ذلك الزمن الطويل الذى عاشه ، وأعطته صحته وأعطته استقامته هذا العمر الطويل ، فقـد كان يكره المحرمات ، وكان مفطوماً عن الشهوات . ولم يعرف عنه ما عرف عن خلفاء بنى اميه ولا خلفاء بنى العباس ولا ماعرف

عن أحفاده الهادى والرشيد والمأمون من نزوات ومطامع ورغبات فى الترف واللهو

ولقد كان يعمل وقته كله حتى أرهق نفسه وأرهق من حوله . حتى أغروا طبيبه بأن يشير عليه بشرب النبيذ دواء وعلاجاً عسى أن يشغله الشراب عنهم فما لبث المنصور بعد يومين أن أحس تثاقلا عن الصلاه فلما أصبح دعا بما عنده من شراب فأمر باراقته ثم قال لا ينبغى لمثلى أن يشرب شيئاً يشغله . وهذه الصورة تعطينا خلقاً من خلق المنصور هو قوة إرادته الضخمة التى دفعته إلى أن يصرف نفسه عن الشىء ولا يدعه يؤثر فيه أو يفرض عليه .

وكان شغوفاً بالبناء ، يرى بنـــاء الدولة فى بناء العمارة . وله ذوق رفيع اعترف به كل من شاهد أو سمع أو قرأ تفاصيل النظام الذى رسمه لبناء بغداد ، وقصر الخلد والقبه الخضراء ، وبنى الرصافه لابنه وبنى الشكنات وكان يقف بنفسه من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر لا يجهـد ولا يضيق بالملاحظة والأمر . ولم يقف أياماً وإنما وقف شهوراً لأنه كان يبنى مدينة ضخمة هى بغـداد ، وأعانه على ذلك انقطاعه عن الشهوات وقوة إرادته وصلابة بنيانه وإيثاره الخشن من الطعام واللباس . وكان ورعاً ويقوم الليل ويسبغ الوضوء ويصلى ما شاء الله له أن يصلى .

وقد وصف المؤرخون يومه بأنه كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته . فاذا صلى العشاء الآخره نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والاطراف وشاور سماره . فاذا مضى ثلث الليل قام من فراشه فاسبغ وضوءة وأقام فى محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس فى ايوانه

وقد أحب التنقل وزار أغلب أنحاء الامبراطورية فى آسيا . وذهب إلى خراسان وفلسطين والشام . وتعددت زياراته إلى مكة .

وقد ضرب المثل بحكمته وحرصه على المال حتى أنه رأى فى داره قنديل معلق . وكان الموضع بين الضوء والظلمة فأمر بأن يطفأ وقال لا يعاد هذا المصباح إلى هذا الموضع إلا وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار .

وكان حريصاً على تحرى العــــدل فى الحكم راغباً فى أن يصل إلى ضمائر الرعية لدفع الظلم عنها .

وليس أدل على حكمته وحرصه من أنه كان يقول : ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بالى أعف منهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم . وصاحب شرطه ينصف الضعيف من القوى . وصاحب خراج لا يظلم الرعية ثم عض على أصبعه السبابة وقال : وصاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

وقد عرف بضبط النفس والقدرة على مواجهة خصومه فقد روى عنه أنه وقف يخطب فقام رجل وقال يا أمير المؤمنين أذكر من أعنت فى ذكره فقال له مرحباً : لقد ذكرت قليلا وخوفت عظيما . وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والموعظة منا بدت ومن عندنا خرجت . وأنت يا قائلها فاحلف بالله ما الله أردت . إنما أردت أن يقال قام فقال فعوقب بضر مأخوذاً بها ويلك وإياكم معشر الناس وأمثالها .

هذه صورة نفسية للمنصور فى بعض تصرفاته وشمائله تعطى صورة الرجل القوى الثابت القلب . وهو الرجل الذى قتل أبو مسلم بعد أن رأى أنه ينافسه سلطانه وأن الدولة لا يقوم فيه سلطانان . ولا شك أن قتله لأبى مسلم رمز على دهائه الضخم البالغ فقد كان يعرف مقامه بين جنوده وكان اسمه ألمع من اسم المنصور . ولكنه استطاع أن يتحرر منه وأن يقذف به فى نحور العدو حتى يخلص منه أو من عدوه الآخر فلما خلصه من أعدائه قضى عليه .

الحجاج

اختلفت الآراء فيه ولكنها أجمعت على أنه شخصية ضخمة فى تاريخ الحكم . وأنه كان سناداً قوياً لملك بنى أميـة وقد أوتى طبيعة صارمة غاية الصرامة حتى قيل أنه لم يعرف الضحك فى حياته إلا مرة واحدة تبسم فيها . وحين رأته زوج الخليفة جالساً بجوارة بعثت إليه تحذره من جهامة الرجل الذى يجلس بجواره . ولم يكن له أصدقاء وكانت الصلة بينه وبين الناس تقوم على خوفهم منه ، أو رغبتهم فيه .

وقد وصف نفسه بأنه أجرأ الناس على سفك الدماء . ووصف نفسه للخليفة عبد الملك بن مروان بأنه لجوج لدود حقود حسود .

وأجمع المؤرخون على أنه كان قبيح المنظر قصير القامة . ضئيل الجسم . نحود . فشل فى أول حياته فلم يستطع أن يكون بطلا فى أى ميدان . وعجز أن يكون فارساً يضرب بالسيف ويطعن بالرمح أمثال لداته وأقرانه . وكان قد بدا حياته فى الطائف معلماً للصبيان ولكنه ضاق بهذه المهنة وكرهها ورغب فى أن يضرب فى الآفاق ليحقق آمالا كآمال دون كشوت

وقد عرف الحجاج بالطموح الذى مكن له فقد اهتبل الفرصة حين جاءت ولم يدعها تمر دون أن يضرب ضربته وهذه هى قصة هذا الحادث الذى يعد مفتاح شخصيته فقد ألقى الحجاج يوماً أمراً إلى الشرطة بالمسير إلى جهة فرأى أن أتباع ابن زنباع لا يزالون يأكلون فى تراخ غير مبالين بأمره . فلما أمرهم بالسير فى حزم سبوه قائلين له : يا ابن اللخناء فلم يجبهم إلا بأن أمر باحراق الخيمه عليهم وأمر بضربهم بالسياط فذهبوا إلى روح ابن زنباع يشكون إليه ما لحقهم من الحجاج . فذهب ابن زنباع إلى الخليفة يشكوه . ولما استدعاه الخليفة عبد الملك ليسأله عما كان منه قال له أنك يا أمير المؤمنين تستطيع أن

تعوض ابن زنباغ من الخيمة خياماً . وتهب له بدل التابع أتباعاً . ولكنى لن أسمح لأحد أن يعصى أمرى لأنه مستمد من أمرك .

ومن هنا بدأت تلك الشهرة التى عرفت عنـــه بعد بالغلظه والتسلط والاستبداد . وقد أعانه عليها أنه ولى الأمور فى الكوفة ولها تاريخها العجيب فى حب آل البيت وآل على .

فمثل تلك الرواية التمثيلية التى بدأها بأن جلس على المنبر وقد علت رأسه عمامة ضخمة . وقال كلماته المعروفة « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى »

... وقال كلمته المعروفة بعد أن أرهب الناس بجلسته الطويلة « أن أمير المؤمنين قد عجم كنانته فوجدنى أصلبها عودها ورماكم بى .. » وأخذ يتلو خطاب عبد الملك بن مروان فلما لم يجب أحد على السلام الذى بدا به الخطاب صمت وتوجه إليه بقسم ويهدد بأنه سيعلمهم الأدب فلما أمر الغلام بأن يعود إلى القراءة مرة أخرى لم يبق أحد فى المجلس لم يرد السلام على خطاب عبد الملك .

ومن مواقفه القاسية التى يحفظها له التاريخ أنه لم يتورع فى رمى الكعبة بالمنجنيق وهى على قدسيتها التى يعرفها له المسلمون لأن أهلها خرجوا على الخليفة

وعرف الحجـــاج بالجرأة فى سفك الدماء والعنف والقتل على الظن للارهاب حتى كان يقول للناس « لأحزمنكم حزم السله ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل .. »

ولكنه مع هذه الجرأة مع الناس كان ذليلا فى مواقفه مع الخلفاء وكان عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك يخاطبانه خطاب الخادم أو العبد فلا يجدان منه إلا الاستجداء والاستذلال .

وهو فى تصرفاته أشبه بالرجل المريض حتى قيل أن مصــــدر هذا الجد

الارهابى الذى عاش فيه إنما هو إحساسه بالنقص . وكان يحاول أن يكمل هذا
هذا النقص بالزواج عدداً من الزوجات وكان زواجه لهم أشبه بالاختطاف
والقسر . اعتماداً على سلطانه . فكان الناس يزوجونه خشية بطشه ولكن
واحدة من نسائه لم تحبه لفظاعة خلقه ولضعفه النفسى والحسى ... ووصفته
هند بنت اسماء عند ما بلغها موته أنه شيطان .

وقد ترك الحجاج اسما مشوباً بالكراهية والحقد . ولكنه عرف بالقدرة
على مواجهة الجماهير الطاغية وإذلال أهل العراق الذين كانوا خصوماً للدولة
الأموية . ولا شك أنه بعيد الأثر فى تثبيت قواعد الدولة العباسية . وإذا
ذكر الخير للحجاج فانه يذكر فى ارساله الفتوح إلى أسيا وارسال أبو القاسم
الثقفى إلى الهند .

الرشـــيد

يقف « هارون الرشيد » على رأس القمة التى بلغتها الدولة العباسية ، بل التى بلغها تاريخ الامبراطورية الاسلامية كلها .. » هذا المجد الذى لم يلبث طويلا بعد ذلك ، والذى كان خلال عهد المأمون إمتداداً للدفعة القوية التى بلغها الملك فى عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذى روى عنه أنه قال للسحابة المارة « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك »

اختلف المؤرخون حول الرشيد إختلافا شديداً . فذهب بعضهم إلى أنه كان يصلى مائة ركعة كل يوم ، وأنه كان يتصدق بمائة ألف درهم ، وأنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً .. وذهب البعض الآخر إلى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص « ألف ليلة » وأنه كان مرحاً طروبا يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وأنه كان يقضى غالب وقته بين الغناء والموسيقى ، والمغنيات والقيان .

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعدتين اللتين تجمعهما دلالة الشخص القوى الحيوية ، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة .

وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هـذا من أن يعيش هاتين الحياتين معاً ، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما قريبان جداً . يلتقيان دائما ، إذا بعدت عنهما مبالغات القصاص وأحاجى الرواة .

وليس على الرشـيد من ضير أن يعقد مجالسه فيستمع إلى السمر والغناء والموسيقى .. ولا يمنعه ذلك من أن يصلى لله مائة ركعة . وأن يمضى إلى الحج عاما والعزو عاما .

.. وكل وقائع حياة الرشيد الصحيحة التى بين أيدينا . تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجد فقد حفلت حياته القصيرة بالغزو والجهاد ، فما كان

ينتهى من غزاة حتى يفترع أخرى . . كذلك كان منذ شبابه الغض إلى اليوم الأخير من حياته .

وأبرز ظاهر حياته أنه رجل حرب وقتال ، أشربت روحه بالجهاد وقيادة الجيوش ونضال العدو ، وكانت أغلب غزواته فى أرض الدولة البيزنطية ، فلما ولى الملك نظم الشواتى والصوائف وحرص على إرسالها ، ثم خرج بنفسه إلى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ، ومنعوا الجزية .

وقد كان حفيا بمواجهة الخصوم والأعداء ، لايهدأ ولا يستريح إلا انتصر يكسبه من وراء نصر ، فلا يلبث أن ينتهى من صراع الأعداء على حدود الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك . . . وهو فى هذا كله صلب العزيمة ، قوى العود ، غاية من البسالة والحيوية .. وهى صفات لا تجعل صاحبها بحال فى صف المنقطعين للهو أو العاكفين على الهوى . .

وفى هذا يقول الشاعر :

ومن يطلب لقاءك أو يرده   فبى الحرمين أو أقصى الثغور

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة . . على أوضح صورها وأقواها حين استبان له غدر البرامكة .. فصرعهم فى ليلة واحدة . على أسلوب غاية فى الجرأة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، حتى شفاعة ظئره التى أرضعته وربته .. وكانت عنده فى مقدمة الشافعين المشفعين .

وليس شك أن هذا التصرف الجرىء بالنسبة للبرامكة . . بعد أن أطلق يديهم فى أمور الملك سبعة عشر عاماً ، حتى بلغوا مكانا عالياً ، واستطار اسمهم ، وعلا صيتهم . . وفى الوقت الذى كان يعلم أنهم هم الذين أوصلوه إلى الملك ومكنوا له منه ، لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد ، قوة تزرى بما عرف عن جده المنصور .. وإن ظلت نفس الرشيد تحتفظ بطابعها الخالص من السماحة والرقة واللين والمرح والإشراق .

.. وآية ذلك الذى نذهب إليه فى نفسية الرشيد ، أنه فى رحلته الأخيرة إلى خراسان ، حمل إليه أحد الخوارج ، وكان فى أشد حالات المرض ، وفى سكرات الموت ، فأمرهم بقتله أمامه ، وظل يملأ نظره من دمه المهدور ، وهو مشجى على وشك أن يبلغ الأجل من علته . .

وكان الرشيد خلال حياته التى لم تتجاوز الخامسة والأربعين ، حامل لواء الحضارة الإسلامية فى الشرق — بالإضافة إلى منصبه كخليفة للامبراطورية — فقد احتضن الثقافة والفن . وشجع رجال الشعر والموسيقى والغناء . . وأفسح لهم ومكنهم من الإبتكار والتجديد والإبداع ، وعنى بالتأليف ، وأغنى الفقهاء . وفتح لهم أبواب البحث والقضاء . وعقد لهم مجالس البحث والمساجلة والمناقشة فى مختلف المسائل .

.. واتصل بعميد للغرب فى عهده . شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وايطاليا وأرسل إليه وفداً .. وأهدى إليه مفاتيح بيت المقدس علامة على الود بين الغرب والشرق وبين الإسلام والمسيحية .

* * *

ثلاث نجوم : كانت تدور فى فلك الرشيد . أمه الخيزران وزوجه زبيدة ووزيره جعفر .

أما الخيزران فقد كرهت الهادى لأنه كان يصرفها عما تبغى من مظاهر السلطة والنفوذ . أما الرشيد فقد أباح لها ما تشاء منه وإليها يرجع بعض الفضل فى أن يقفز إلى الخلافة قبل أن يجىء دوره فى ترتيب الولاية وولاية العهد

وأما زبيدة فزوجه الأولى التى كان يؤثرها على كل زوجاته وسراريه وجواريه . وهى أم الأمين . وكانت ذات رأى وتدبير . فكان الرشيد لا يرى بداً من أن يأخذ بمشورتها وأن يطلق يدها فى إنشاء القصور وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها . .

وأما جعفر فكان محبباً إلى نفسه غاية الحب . حتى لقد روى بعض المؤرخين أنهما كانا يدخلان فى ثوب واحد . وهو إن قيل على أنه ضرب من المجاز . يصور مدى ما كان بينهما من الحب الصادق والود الأكيد .

وروى أن جعفر تصرف باسم الرشيد فى أمور غاية فى الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضى عنه . ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عند ما قضى فيه الرشيد بأمره .

وتلك شميلة من شمائل الرجل الفذ ، تثبت فى وضوح قوة عارضته ، ولوكان كما روى عنه من الإسراف فى الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة فى الوقت المناسب .

فاذا أخذ عليه بعد ذلك أن بايع للأمين بولاية العهد والمأمون بخراسان وللقاسم بولاية العهد بعد المأمون . . فى عقد واحد . وكان هذا الذى فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده ، وهذا خطأ من أخطاء العاطفة المتحمسة والعقل الراغب فى حسم الأمور الذى يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه . . وإرادته

وهو أشبه بما قيل عن رضائه عن صداقة جعفر والعباسة . وجمعهما فى حضرته وإنفاذ أمره بزواجهما دون أن يلتقيا كما يلتقى الأزواج .

فاذا صح ما ذهبنا إليه من أمر الرشيد الذى عاش حياته مقسما بين الحرب والحج . ومغالبة الأعداء والخصوم من الروم . والعلويين والبرامكة فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية من أن يرد موارد المتاع بالسمر ومجالس الطرب . فذلك يتمشى مع طابعه ولا يتعارض معه بحال من الأحوال .

وقد اداه طبعه السياسى الواضح هذا إلى أن يرسم الخطط للأمور التى يمكن أن تقع بعد عهد طويل .. ولا بأس عليه من أن يخطىء .. خطأ

المجتهد ، فى أن ينظم المملكة من بعده على صورة مبايعة طويلة المدى لأولاده أو أن يقتل الخارجى ، وهو على وشك الموت . .

ولا شك أن تصرفه فى كسب صداقة شارلمان ، وإهدائه إياه مفاتيح بيت المقدس ، هو من وعيه السياسى النابه الذى يريد أن يحول بين عادية الصراع بين الشرق والغرب ، وهو ما امتحنت به المملكة الإسلامية بعد ذلك

وجملة القول فى الرشيد أنه كان من أبرع ساسة الشرق ، وخلفاء الاسلام وأنه لم يكن بالترف اللين الناعم كما صوره صاحب الأغانى ، أو كاتب ألف ليلة ولكنه كان قاسياً جباراً ، فيه روح المجاهد المحارب ، وعاطفة الشباب الفوار الذى لا يحب الهزيمة ، والذى يتعقب خصومه ويفتك بهم ، والذى يحب مجالس العلم ، ومجالس الفن ، ويلقاها مرحاً مبتسما طلقاً ، وإن طوى النفس على هزيمة ماضية تبرز فى قوة حين يتصل الأمر بشخصه أو سلطانه

٨ # عبد الرحمن الناصر

شخصية باهرة بجوانبها المتعددة وطبيعتها الواســـعة الأفق ، ونفسيتها العميقة الغور . عرف بالوسامة والطلاقة وحسن السمت وكرم الخلق وقوة الإدراك . ووصف بأنه أبيض أشهل . حسن الوجه . عظيم الجسم . أحبه الناس ، وعشقته الجماهير لهيبته ولسماحة نفسه والخلال فيه يتمثل منها الوفاء والرعاية والبطولة .

ولى الحكم فى سن الحادية والعشرين . وأعادمجد الأندلس بعد أن أوشك أن ينتقص . ودعا شبابه وفروسيته وشجاعته الجيش إلى حبه والتعلق به . فقد كان مقداماً شجاعا مفعم النفس بالحماسة وإستعادة مجد العرب وعظمة المسلمين وقد سار فى مقدمة جنده يلهب أعصابه ويملأ روحه بالحماس والإيمان فساروا وراءه معجبين . ومضت مدن الأندلس تفتح له أبوابها فأذعنت له قرطبة واشبليه وأطاعته البربر . وأعلن موقفه فى صراحة بأن لا يقبل الشقاق . ودعا رؤساء القبائل إلى الوحدة . ومسح بالحكمة والحـــزم على القلوب فلم يسمح باى عصيان ورفض أن ينزل عن أى جزء من مملكته ، وفى خلال إستعادته لأرض الأندلس كان رفيقاً رحيما بالناس . لا يدع جنده لمأثمة من مآثم الفتح .. وقد مكن له ذلك فاستطاع أن ينفذ إلىمرسيه وأن يهاجم طليطله وأتاحت له قوة شخصيته أن يعيد ما صنعه أسلافه فى خلال ثمانية عشر عاماً قبل ولايته .

وعند ما استولى على حصن « بيشتر » وقف على مشارف الحصن . ونظر من بعده الشاهق إلى القمم الشديدة الانحدار التى تحيط به . وامتلأت روحه عاطفة واهتزت نفسه . فلم يلبث أن سجد لله شكراً »

وعند ما ضعف مركز الخلفاء فى المشرق دعا لنفسه بالخلافة فأمضى ثلاثين

عاماً يحمل لواء الخلافة . وقد استتب له الأمر . واستقرت الأحوال . ودخل الأندلس فى عهد من عهود السلام والحضارة مكن له من أن يكون مشعل النور ومنار العلم فى أوربا جميعها . وذلك بفضل حكمة عبد الرحمن الذى دعم الصلات بين العرب والبربر والاسبان والمسلمين والمتسلمين .

واعجب بشخصية عبد الرحمن كل من عرفه واتصل به . وكان عبد الرحمن إلى هذا المظهر الجاد والفروسية فى الحرب والحكمة فى الادارة والبراعة فى الحكم والمرونة فى السياسة إنسانا يحب . له قلب يخفق وعاطفة رقيقة تضطرم بالحنان والأشواق .

وقصة حبه لزوجته الزهراء رمز على هذه النفس التى أحبت فاستجابت لمن تحب فقد طلبت إليه الزهراء أن يبنى مدينة باسمها فبنى مدينة الزهراء فكان لها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه . وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الرخام والذهب ، وبنافورته تمثال عجيب أهداه إليه ملك الروم وفى وسط البهو حوض ملىء بالزئبق الرجراج . وإلى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس قد رصعت بالجواهر ، فاذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق ، ملأت البهو بريق يشبه لمعان البروق حتى لقد يحجب الحاضرون عيونهم بأيديهم لشدته .

ولم يكن يصنع عبد الرحمن كل هذا تحت ضغط عاطفة حب عميق التى قيل أنه كان مشغوفا بها غاية الشغف .

وقد ترك عبد الرحمن من البنين أحد عشر ولداً . وقد سأل عن البناء الضخم فقال أنه أراد به مواجهة الفرنجة بمظاهر قوية ليكون ملك المسلمين أشد هيبة ومكانة .

ولكن الناصر إلى ذاك لم يكن سعيداً كل السعادة ، بالرغم من العمر المديد والنصر المؤزر والحب الموفق والسلام الذى عاشت فيه الأندلس خلال حكمه .

يقول ابن خلدون « وجد بخط الناصر رحمه الله أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما . فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وتحليها بكمال الأحوال لاوليائها . هذا الخليفة الناصر حلف السعود . المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود . ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام . ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة . لا إله إلا هو . . . »

وبعد فعبد الرحمن الناصر علم من أعلام الاسلام الذين لاينسى اسمهم حين يذكر المجد والفتح والعظمة وشمائل الرجال

الحاجب المنصور

يبهر الحاجب المنصور من يطالع تاريخه بتلك العصامية وذلك الصمود للأحداث والثبات وقوة العزيمة . فقد تطلع إلى المجد وهو شاب مغمور وظل يعمل بقوة ويزيح من طريقه العقبات والصخور حتى استطاع أن يصبح بعد كفاح طويل الحاكم الأول للأندلس كلها .

ولكن أسلوب الحاجب المنصور لم يكن أسلوباً مثاليا ولكنه كان أسلوب السياسيين بما فيه من مؤامرات ودسائس ورغبة فى الوصول إلى الغاية أياً كانت الوسيلة . وقد عرف بالقسوة والصرامة فى تحطيم خصومه . وتمزيق منافسيه .

كان فى أول شبابه طالبا مغموراً بجامعة قرطبه . وقد نشأ فى بيت فقه وعلم فكان حسن الأسلوب جيد الكتابة . وقد بدا له أن يتصل بقصر الخليفة حيث كان يكتب الرسائل لخدم القصر وقد وثق بذلك علاقته بكبير الحجاب ، الذى رأى فيه براعة وتفننا .

وأتاح له هذا الاتصال أن يعرف سيدة القصر ، صبح أم المزيد وزوج الخليفة هشام ، الذى أعجبت به إعجابا بلغ درجة الحب . وكان بعيد الأثر فى التطور الخطير الذى ظل المنصور يقطع به المراحل حتى بلغ أكبر منصب فى الدولة .

وقد وصف بأنه كان يقضى نيله مكبا على الفكر والبحث والتأمل . وبين يديه دواته وقلمه وورقه . يكتب ما يعن له من خواطر وآراء . ويظل هكذا حتى قبيل الفجر فيهجع ساعة ثم يقوم إلى الصلاة .

قال له شعله : لقد أفرط مولانا فى السهر وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم وهو يعلم أن السهر يحرك عليه العصب عنده . فقال له أن حارس الدنيا

لا ينام إذا نامت الرعيـــة وأنه لو استوفى نومه لما كان فى دور هذا البـلد عين نائمة .

وكان المنصور شديد الثقة بنفسه ، عميق الفهم لغرضه ، فيه عزيمة واعتداد ظل يواصل السيده صبح بالهدايا حتى ملك قلبها وأسر لبهـا فأحبته وحطمت الحوائل من طريقه ، وأعانته على خصومه . وفى حياة الحاكم كان قريباً منهـا لما استطاع أن يكسب به ثقة الخليفة من حزم وأمانة . فلما مات كان هو الرجل الذى يقف وراء صبح . ثم طغا نفوذه على نفوذها حثيثاً .

وقد غزا خمسون غزوة عاد منها جميعها منتصراً فقد كان فارساً وكان خشناً لم تغره الحضارة ، ولم يذهب الترف قوة عزيمته . وقد أغار عدة غارات موفقة جعلته موضع إعجاب الناس وتقـــديرهم وكان أوقعها غزوته لنصارى الشمال . وقيل من حزمه أنه كان إذا قدم من غزوه لا يحل من نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وصاحب الأبنية ليعلم ما وهى من أسواره وقصوره ودوره .

وقد تعلق به الجيش بعد أن أضاف إليه فصائل جديدة من أفريقيـة ونصارى الشمال وأتيح له الاستيلاء على ليون وبرشلونه .

وقصة المنصور فى تحطيم خصومه والواقفين فى طريقه إلى الملك تعطى صورة تلميذ من تلاميــذ ميكافيلى وقصته فى عزل ابن المصحفى وإيقاعه بين المصحفى رئيس الشرطة وغالب رئيس الوزراء وإتهامه الأول بالخيانة وإلقائه فى السجن ليعطى صورة قسوته وجبروته فى فرض سلطانه وتعزيز مكانه .

وقد انتهى الأمر إلى أن استولى على قصر الخليفة وطوى الوزراء فى شخصه . ولعل أبرز صورة لعزيمته الجبارة عندما كان يتحدث مع الناس فى بعض شأنه فاذا برائحة لحم يشوى ، ثم ظهر أنه قد أحضر كواء لـكى ساقه بينما كان يناقش من حضروا مجلسه فى هدوء وسكينة . والحادثة الأخرى أنه

قتل ولده عبد الله صبرا بالسيف لأنه خالفه فى أمر من الأمور .

وقد وصف بأن جسمه خاضع لعقله ، وأن حب صبح لم يفتنه لدرجة أن يصرفه عن المجد ، وقيل أن لذاته خاضعة لطموحه ، حتى أنه كان يحتفظ بهدوئه فى أشد أوقات المحن والشدائد .

وقد عاش حياته يعمل ويرسم خطط الحرب ، ويعد القوات للدفع بها فى نحر العدو . ولم يعرف عنه لهو ولا خمر ولا مأثمة . كأنما قد فطم نفسه عن الشهوات . وجردها من الأهواء . وظل يعمل حتى قضى وهو فى خضم الحوادث واستشهد فى ميدان المعركة .

ولا شك أنه أذل خصوم الاسلام وأحنى رءوسهم ومزق وحدتهم حتى تملقه زعمائهم والتمسوا رضاه .

وقد كان هو قمة المجد فى الأندلس فلما انتهى انطوت صفحة الفرد وبدأت عهود الضعف والانحدار والتفكك . ولم يقم من يخلفه على هذا .

وقد اختلفت معه صبح فى آخر أيامها حينما استفاقت من نشوة حبها مطالبة إياه برد سلطان الملك إلى ابنها المؤيد . وحاولت أن تؤلب عليه . ولكنه كان أكبر من الحوادث . ولم يكن هناك إذ ذاك من يستطيع أن يقف فى وجهه :

ولا غرو فالمنصور هو ثالث ثلاثة فى الأندلس عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وهو . . .

نور الدين الشهيد

إذا ذكر الايمان المقرون بالجهاد ، والتصوف المرتبط بالدم فى سبيل الله فان أبرز اسم يمكن أن يحقق هذا المعنى هو نور الدين الشهيد .

عزوف عن الدنيا . وحب لله . وصدق عزيمة فى سبيل سحق الصليبيين حتى أنه قضى حياته كلها فى حروب دائمة . وبلغ به الورع أن حرم على نفسه الابتسام والفرح وقال أنه يخشى أن يحاسبه الله عليه . وفى أرض المسلمين جندى من جنود الفرنجة . فقد روى له حديث مسلسل بالتبسم وطلب منه ان يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب لذلك وقال انى لأستحى من الله أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون من الفرنجة .

* * *

عاش مرابطا للعدو . وقال أن حب الجهاد ينسينى طيب دمشق ورقة هوائها وجمال ازهارها . وكان من أصبر الناس على الحرب وأبلغهم مكيدة . حتى وصف بأنه أبرع من ركب فرسا وأثبت وأشجع . ولما فاتته الشهادة مرة ومرة كان يحس بالحزن ويقول لقد عزمت على الشهادة غير مرة فلم أنل شرفها . ولو كان فى خير أولى عند الله مكان ارزقنيها .. ولكنه مات شهيداً .

ولم يكن أحد كنور الدين فى قيادته للجيوش . يتقدم أصحابه ويتعرض للموت . ويضرب فى صلابة وثبات قدم . وفى كل خطوة والمعركة على أشدها يسأل الله أن يحشره فى بطون للسباع وحواصل الطير . وإذا التقى الجمعان سجد لربه ومرغ وجهه وتضرع وقال اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا .

ولعل أبرز مواقع صراعه مع الصليبيين موقعه « ابت » التى حشد الصليبيون فيها حشدا فقصد إليهم فى ستة آلاف فارس وصرع أميرهم وقطع

رأسه وأسر قائدهم . وقد استطاع فتح دمشق والاستيلاء عليها ودك حصون الفرنجة الشمالية وفتح مصر .

وأعاد نور الدين سيرة . العمرين : ابن الخطاب وابن عبد العزيز . كان قواما ينزل المسجد بغلس ولا يزال يركع ويسجد حتى يصلى الصبح . وكان يرفع يديه طويلا إلى السماء ويتضرع ويبكى .

وقد بلغ من ورعـــه أنه عاش على سهمه فى غنيمة الحرب ورفض كل مال أرسل إليه وقال إن رقبتى رقيقة لا تطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله .

وعاش مدة حكمه يعقد مجالس الخلافات للنظر فى قضايا الرعية ومشاكلهم حتى أحبه الناس وتعلقوا به حتى كانوا يضحون عنه بأرواحهم . وكان الناس فى أشد القلق عند ما أصابه المرض .

وأمضى أيامه كلها غازياً وما من غزاة يدعو إليها إلا ويجتمع له الأحداث والمتطوعين والفقهاء والمتصوفة فقد كان يحب العلماء ويجمعهم إليه ويبحث معهم أمور الدين .

وقد وصفه العماد الـكاتب بأنه كان فى الحرب ثابت القدم حسن الرمى صلب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة .

وعرف نور الدين بالعدل حتى أنه كان يلعب الـكرة بدمشق ليروض خيله ويمرنها فرأى رجل يحدث آخر ويشير بيده إلى نور الدين فارسل إليه يسأله عن حاله فقال : لى مع الملك العادل حق . وهذا غلام القاضى فالقى نور الدين الـكرة من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضى وهو حينئذ كمال الدين الشاهد زورى وأرسل إلى القاضى يقول له : إننى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى . فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه

فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق . قالوا : لا قال : اشهدوا إنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني فقد كنت أعلم إنه لا حق له عندي . وإنما حضرت معه لئلا يظن إني قد ظلمته . فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له .

وكان نور الدين ورعاً بسيط الملبس خشن المأكل . قد نفض يده من ترف الدنيا وزخرفها ونذر نفسه للجهاد في سبيل الله . وقد عرف بكثرة الهبات والصدقات وقد حملت إليه الهدايا الرائعة فلم يكن يلتفت إليها وإنما وهبها لبعض من يزورونه من الفقراء.

وقد استجاب الله له فرزقه الشهادة فمات في ساحة الوحي وهو يحارب الصليبيين وينشر روح الكفاح والجهاد في سبيل الذود عن بلاد الإسلام .

الجنيد

يعد أبو القاسم الجنيد من صفوة رجال التصوف والزهادة . ومن الأسماء اللامعة فى الورع والتقوى . لا يدانيه فى صورته وورعه إلا الحسن البصرى . فهو قد آمن بربه على أساس فقه عميق . وقد سمع الحديث عن الحسن بن عرفه واختص بصحبه السرى السقطى والحارث المحاسبى . وقد كسب من صداقتهما قوة فى الشخصيـــة . أحب التصوف بعد أن أدرك أسراره وهو عنده ليس مجرد مظاهر . وقد رآه صفـــاء فى النفس وجلاء للقلب .والاتجـاه نحو الحرمان والتقشف وكان يقول والله ما أخذنا التصوف عن القيل والقال وإنما أخذناه عن الجوع وترك اللذات والعزوف عن الدنيا .

ويعد الجنيد الرجل الذى رسم صورة التصوف العملية بتصرفاته وشمائله . فقد عزف عن الدنيا حقيقة واسهر ليلة واظمأ نهاره . وقد أكد فى أكثر من حديث له بأن التصوف مربوط بالقرآن والحديث ومن لا يفهم دقائقها لا يقيد بتصوفه .

ولم يكتف الجنيد بأن يفهم التصوف علما أو يكون متصوفاً خالصاً ، بل رغب إلى الإحاطة بضروب المعرفة على أختلاف ألوانها . وكان يصلى ثلاثمائة ركعة كل ليلة .

وقد شب الجنيد فى بغداد أيام لهوها ومجونها .. فكرة هذا الترف ودعا إلى الله وعكف على العبادة وكانت حلقته من أضخم الحلقات فقد أجتمع

لها العلماء والفلاسفة والشعراء لدقة معانيه وعمق أفكاره وسلامة منطقه وقد وصف نفسه بأنه لم يدع علما فى عصره لم يفـــد منه ويضمه إلى علمه مهما أجهده البحث وراءه .

وكان يفتى فى المسألة الواحدة بأكثر من رأى ووجه .

وكانت سمته التواضع حتى أن بعض العلماء حين سالوه عن غزارة علمه قال لهم : لقد كنت أنا أجريه فانا أمليه . إنما هو من فضل ربى يلهمنيه ويجريه على لسانى .

وهو يؤمن بأن ذكر الله بالقلب هو أصل المحبة وعنوان التقرب لأنه يغزو قلب الذاكر وفى هذا يقول أن المحبة ميل القلوب فالذاكر إذا أحب مال إليه قلبه وانجذب إلى حضرته وفنى فى ذاته . فيكون حبه من غير تكلف وهيامه عن صدق وأخلاص وما دام الذاكر قد مال قلبه إلى من يذكره واتصلت به محبته فانه يرى اللذة والسعادة فى الخضوع له والتدخل فى حضرته وإطالة الوقوف ببابه طلباً للمثول بين يديه ويتجلى فى رقة نفسه ونقاء عاطفته عند ما يرسم للحب هذه الصورة الحلوة المعطرة :

« إذا ملك الحب شغاف القلوب وتكشف الحال بين الحب والمحبوب . واصبحت المحبة تعظيما يحل الأسرار وقرباً يحى موت القلوب . فاذا سمع المحب ذكر محبوبه اضطرمت منه الجوارح طرباً لذكر محبوبه . والمحب إذا كان ضعيف الإيمان ضعف وجده وضعف الوجد يتيح حالا من التواجد وهو ظهور علامات الهيام على المحب . أما القوى الإيمان الراسخ القدم فيكون وجده قوياً وحبه خالصا . ومن قوى وجده تمكن فسكن . وهذه هى حال العارفين . »

وهذه الصورة تدل على أن الجنيد فى شبابه وصباه كان شابا فارعاً قوى العارضة قد عرف الحب والجمال ثم اتجه إلى الله فتحول حبه إليه على هذه الصورة الرائعة . وكل المتصوفة الأفذاذ عرفوا الحب الإنسانى فى فجر حياتهم ثم تحولت عاطفتهم إلى الحب الالهى .

وقد بلغ به عمق عاطفة وجهه أن كان ملهماً نير البصـــيرة شفاف القلب كأنما يرى الغيب من وراء ستر رقيـــق كما يقول بعض مؤرخيه .

ابن حزم

ما أظن أن شخصية من شخصيات العلماء فى تاريخ الإسلام تملأ النفس بالتقدير والاعجاب كما تفعل ذلك سيرة ابن حزم بما أعطيت من السمو وسعة الأفق والاشراق والجرأة . فهو الإمام العالم المحب الذى أعلن رأيه فى هذه العاطفة النبيلة وأفرد لها كتاباً ولم تحل عظمة مكانه العلمى كوزير أو عالم أو إمام من أن يقول أنه أحب فى عفاف ووفاء .

قال الحافظ أبى عبد الله « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين . وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه » وقيل : أنه كان يحمل عليه ويجادل من يخالفه فيه فكان نتيجة لحرية رأيه أن نفرت عنه القلوب وأبعد عن وطنه وتوغل فى البادية .

وقد عاش ابن حزم كريم النفس عازفاً عن صحبة الملوك . فكان من نهاية ذلك حقد العلماء عليه وإيغالهم صدور الملوك عليه مما أدى إلى حرق مؤلفاته علانية فى أواخر حياته .

وكان أجمل لذات حياته السعى وراء العلم حتى كان له من التأليف ما لم يعرف لغيره من علماء العرب باستثناء ابن جرير الطبرى . وقد كان عصامياً فى ثقافته فقد علم نفسه وأكب على الدراسة غير مستعين إلا برغبته القوية . وقدأتاح له ذكائه أن يصل إلى ذروة العلم فاستوعب أعلام الفقه والتفسير والحديث والأدب والشعر والتاريخ من أطرافها . وكان له رأيه المستقل الذى كونه نتيجة بحثه .

وقد بلغ فى ذلك مبلغ المجتهدين . وتحرر فى نقد خصومه ومخالفيه فى الرأى مما أوغر صدورهم وأثار عداواتهم . فألبو إليه المعتضد بن عباد أمير أشبيليه وقد اشتغل ابن حزم بالوزارة وقاسى أهوال الملك وانهيار العروش

ومتاعب التحول فى أمور السلطان . وقضى فى السجن فترات متعددة . وضاق بذلك غاية الضيق فاعتزل السياسة وتفرغ للدرس والتأليف . وزهد فى الدنيا وهنا تبلورت شخصيته فى صورتها الرائعة : العالم العامل القوى الإيمان بالله . الراغب عن متاع الدنيا وزخرفها .

وقد ظل قوى النفس . جرىء القلب . وكان بذلك أول عالم فقيه استطاع أن يكتب فى الحب بجرأة وقوة وأن يصف عاطفته فى صدق وحرارة . وبدت نفسه صافية قد صقلها الحب والإيمان والزهادة .

«وإنى لأعرف هذا وأتقنه . ومع هذا يعلم الله أنى برىء الساحة سليم الأديم . صحيح البشرة . نقى السريرة . . سينكر على بعض المتعصبين تأليفى لمثل هذا . ويقولون أنه خالف طريقته وتجافى عن وجهته . وما أحل لأحد أن يظن فى غير ما قصدته . . »

ويصف الحب فى عبارات رقيقة موجزة . . «هو الحب أعزك الله أوله هزل . وآخره جد . دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناه وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل . . »

لقد كان للعالم الفقيه قلب . وجو الحياة فى قرطبة من أسبانيا المسلمة فى أوائل القرن الرابع الهجرى مشبع بالعطر والحب والجمال . . وقد استجاب له ابن حزم وعاش فيه .

وقد شاء بعد أن استقر فى شاطبه أن يصور عاطفته ويرسم صور حياته إذ شغل الحب جانباً كبيراً من حياته . ولكنه لجأ إلى الطريقة الموضوعية وغاية قوله عن نفسه أنه لم يقترف فى الحب إثماً ولم يورطه الحب فى خطيئة . . »

وليست رسالة «طوق الحمامة» هى كل إنتاج ابن حزم . ولكن له عديد

من المؤلفات الحافلة بالآراء الدقيقة فى مسائل الدين والفقه تضعه فى صفوف العلماء الأجلاء وهو فى حرق مؤلفاته واضطرام الحقد فى نفوس خصومه من العلماء أشبه بابن تيمية والغزالى حيث كانت الأهواء السياسية هى التى تحكم على الأمور ولا تدعها للعقل المنصف أو التقدير الصحيح .

ولم يأخذ المؤرخون على ابن حزم إلا صراحته الصريحة هذه التى جعلته لا يجامل ولا يأخذ الأمور فى شىء من الحكمة والمصانعة أو المرونة . وهوما أوقع الخلاف بينه وبين العلماء فى عصره على هذه الصورة التى أججت قلوبهم بالحقد فذهبوا مع أهوائهم مذهب الدس والوقيعة . ووصفوا لسانه بأنه شبيه بسيف الحجاج رهباً وقد وصف ابن حزم حرق كتبه فى أشبيلية بقوله

دعونى من إحراق رق وكاغد — وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذى — تضمنه القرطاس بل هو من صدرى
يسير معى حيث استقرت ركائبى — وينزل أن أنزل ويدفن فى قبرى

صقر قريش

« . . لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه وعونه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك يعد مرقى همته . ومضاء عزيمته . حتى قذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند . ضرب بين جندنا بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بسياسته . حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ملكا فى قضيته . قاهراً لأعدائه . حامياً لذماره . مانعاً لحوذته . خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه . . إن ذلك لهو الفتى كل الفتى ، لا يكذب مادحه . . »

* * *

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . الذى فر من ظلم العباسيين بعد استولوا على الملك ومضـــوا يستأصلون شأفة الأمويين ، وظل يضرب فى القفار حتى وصل الأندلس فأقام دولة ضخمة ، كان عمره تسعة عشر عاماً ، عندما وصل إلى شاطىء الفرات ، وعندما عبر البحر جاهداً حتى وصل الشاطىء الآخر فراراً من الرايات السود التى كانت تود اختطافه وقتله .

فلما وصـل اليابسة ظل يضرب فى الأرض حتى وصل إلى أفريقيـا فعبر فلسطين ومصر حتى نزل فى بلاط عبد الرحمن بن صعب الفهدى ، أمير المغرب ، ومنها عبر إلى الأندلس فبث فيها دعوة الأمويين من جديد فاستجاب له الناس وكون الملك العريض .

وكان المنصور ألد أعدائه هو الذى أطلق عليه « صقر قريش » فلما قيل له من هو قال « أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . صقر قريش هو عبد الرحمن بن معـاوية الذى تخلص بكيده من سنن الأسنة .

وظباه السيوف . يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته .

إن معاوية نهض بموكب حمله عليه عمر وعثمان، وذلل له صعبه . وعبدالملك ببيعة أبرم عقدها أمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . ولكن عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس . فافتتح الثغور ، وقتل المارقين . وأزال الجبابرة الفارين . .

* * *

ولا شك أن « عبد الرحمن » كان شخصيه ممتازة ، حتى أتيح لها أن تصل إلى هذه الذروه ، وأن تحطم كل ما اعترض طريقها من عقبات . وقد وصفه ابن حيان مؤرخ الأندلس بأنه كان راجح الحلم ، واسع العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن الى دعه . ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحدة . قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوهاً ، شاعراً محسنا ، سمحاً سخياً ، طلق اللسان .

وكان يلبس البياض ، ويعتم به ، ويؤثره ، وكان قد أعطى هيبة من وليه وعدوه . وكان يحضر الجنائز ويصلى عليها . ويصلى بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد ، ويخطب على المنبر . ويعود المرضى . ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم » .

ويبدو كذلك بالإضافة إلى هذا ، أنه كان قاسياً فى مقاومة الدسائس ، نتيجة لطبيعته التى أكسبتها إياه الأهوال .

وقد كان ميكافيلياً بكل معنى الكلمة ، لا يتورع من الغدر والاغتيال

للقضاء على خصومه . بل ذهب فى صرامته إلى البطش بكثير من أصدقائه الذين آووه يوم مقدمه شريداً لا عصبية له .

* * *

وقد روى عبد الرحمن قصته فقال

« إنى لجالس يوماً فى ظلمة بيت تواريت فيه ، وأنا شديد الرمد ومعى خرقة سوداء أمسح بها قذى عينى ، وابنى يلعب قدامى وهو يومئذ ابن أربع سنين أونحوها إذ دخل الصبى من البيت فزعاً باكياً فاهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لأنظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا الرايات السود عليها منحطة . ونجوت بنفسى . . .

واتيت رجلا من معارفى بشط الفرات فأمرتة أن يعد لى دواب ، ومايصلح لسفرى فدل على عبد سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل فخرجنا نشتد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا فى أجمة على الفرات واستدارت الخيل . وقد أحاطت بالأجمة فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات ، فقذفنا بأنفسنا فيه . .

وقطعت الفرات . وهم بعضهم يقذف نفسه فى البحر فى أثرى ، فاستكفه أصحابى فتركونى . وقدموا أخى الصبى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه وأنا أنظر إليه . وهو ابن ثلاث عشر سنة .

ومضيت إلى وجهى ، وأحسست أنى طائر ، وأنا ساع على قدمى ، ومضيت هارباً أؤم المغرب حتى وصلت إلى أفريقيا »

وظل عبد الرحمن ينتقل من مكان إلى مكان .. وصبر واحتمل قسوة العيش وأكل الشعير وشرب لبن النياق .

ومضى طريداً مشرداً ، ليس معه شىء ، لا مال ولا طعام ، وقد تهلهلت ثيابه ولكنه ظل يحمل بين جنبيه نفساً طموحة قوية الإيمان بالمستقبل والمجد

كانت هناك أسطورة رواها له ساحر بأنه سيكون يوماً تاج أمة ورأس دولة .

ولما لم يجد فى أفريقية مجاله الذى يرجوه ، عبر إلى الأندلس .

وكانت الأندلس مضطربة متعبة مجهدة . تتطلع إلى زعامة قوية وإلى شخصية ممتازة توحد كلمتها وتلم شملها .

وكان عبد الرحمن الفتى الشريد هو « الداخل » الذى بعث دولة الأمويين فى الأندلس بعد سقوطها بالشرق .

٧ أبو مسلم

شخصية خارقة ، نادرة ، قلما تمر فى التاريخ إلا فى مراحل متباعدة استطاعت فى سنوات قليلة وفى سن العشرين أن تحدث انقلاباً ضخماً كان بعيد الأثر فى التاريخ الإسلامى كله ، حين نقل الخلافة من بيت إلى بيت والحكم من دولة إلى أخرى ، فانهزمت العربية الخالصة وانتصرت الفارسية الجديدة .

اكتشفه ابراهيم الإمام ، عندما قدمه إليه سليمان بن كثير من كبار الدعاة فى الدعوة السرية العباسية ، وكان يعمل مع ابنى معقل العجلى . فلما رآه الإمام أسماه عبد الرحمن بن مسلم وزوجه ، وقال له « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته فى الكتب » ونسبه إلى بنى العباس .

وهو فارسى ولد باصبهان ورحل فى السابعة من عمره إلى الكوفة ، ولم يلبث ابراهيم الإمام أن سلمه مقاليد الدعوة فى خراسان وأنفذه إلى أبى موسى السراج وإلى كبار الدعاة هناك وكتب له كتاباً يعد من أقوى الدعائم فى نجاحه

« يا عبد الرحمن إنك رجل منا آل البيت فاحفظ توصيتى . وانظر هذا الحى من اليمن فاكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم . وانظر إلى هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فى أمره ، ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء . وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى » والشيخ هو « سليمان بن كثير » وقد قتله أبو مسلم آخر الأمر حين لامسه الشك فيه .

واستطاع أبو مسلم بما أوتى من صفاته الشخصية الممتازة أن يصبح كل شىء فى هذه الدعوة ، وأن يوقع مضر فى ربيعة ويستفيد هو من خصومتهم ووقيعتهم

وأمكن بذلك أن يضرب ملك بنى أمية الضربة القاضية ، وأن يغير مجرى التاريخ

* * *

وكان أبو مسلم على هذا السن الصغير غاية فى الحزم والهيبة وقد أعطاه كتاب أبراهيم الإمام قوة على أن يزيل من طريقه أى شخص . وأن يحقق الغاية التى طبعت عليها نفسه وهى السيطرة فقد كان لا يعرف العاطفة ولم يكن من الذين يبتسمون أو يلهون ولم يتورع من القتل على الشبهة والغدر بأقرب الناس إليه .

وأتيحت له براعة سياسية إلى جانب هذه الشخصية الجهنمية ، كما عرف كيف ينسق بمهارة معارك الحرب .

ويتبع هذا ما عرف عنه من أنه رجل لا مجال للمرأة فى حياته ، فقد غلبت مطامع المجد والظفر بالسلطان على نفسه وقد بلغ غاية غاياتها . ثم كان المجد سبباً فى مصرعه .

وكان هذا القصير الحازم الأسمر ، العريض الجبهة ، الفصيح الطليق البيان ، انتقام القدر لمقتل الحسين من امية فقوض دعائمها وهدم صرحها .

سأله رجل عن السر فى لبس السواد فقال له إن الرسول كان يلبسه ، ولم يلبث أن أشار إلى السياف بأن يقطع عنقه وبذلك أقام حوله سياجاً من الهيبة والرهبة .

وأخرج ابو مسلم الدعوة العباسية من دور الإعداد بعد أن طال بها الوقت دون أن تجد قائداً ، واستطاع ببراعته أن يفرق الجموع وأن يزيل من طريق الدولة الجديدة كل الاشواك .

ولكن ، ماكاد أن يتم هذا الأمر حتى أخذ نجمه فى الأفول ، كأنما يكره الملوك من يحملهم إلى الملك .

فلم يسلم أبا مسلم من الخصومة ، خصومة المنصور الذى ما كاد أن يلى الحكم حتى قتل أبا مسلم بعد مرحلة طويلة من الخداع والصراع .

لقد تحول الموقف بعد أن كسب أبا مسلم المعركة . تغير من ناحيته النفسية كما تحول من ناحية الذين ولاهم . أما هو فقد أحس أن خاتمة هذا الجهد الضخم الذى بذله قد انتهت بالنسبة إليه إلى لاشىء ، إلا أن يرسل له من يحصى عليه الغنائم فقال كلمته المعروفة « أمين فى الدماء خائن فى الأموال » .

وظل السفاح والمنصور يضربان به خصومهم ، ويرسلانه فى معركة وراء معركة علهم يتخلصان منه .

وسافر المنصور إلى مقر أبا مسلم ليأخذ منه البيعة لنفسه بعد أن ولى الخلافة فضايقه أن وجد لأبى مسلم نفوذاً ضخماً بين جنوده ، ورأى الطاعة المطلقة من أتباعه له ولمس أثره السحرى فى نفوس أصحابه وإعجاب الناس فى كل مكان به كبطل حطم دولة وأقام دولة .

وضايق أبا مسلم كانسان ، أن كلا من السفاح والمنصور كان ينظر إلى نفسه أنه صاحب الدولة ومقيمها وأنهما لا يعترفان به ولا بحقه فى تذليل الملك لهم .

أضف إلى ذلك أن أبا مسلم كان منتصراً فى معركة ضخمة ، وكان فى سن الشباب الباكر ، وأنه قد انتهى من المهمة التى كانت تملأ نفسه ، فهنا منطقة فراغ ، كيف تملأ ، لقد ملأها زهو الانتصار وامتزج بها الحقد على العباس الذى كان متوارياً هناك ثم جاء اليوم فأصبح خليفة له المكان الأول فى الدولة كلها ، أليس هو الذى سهر وكد وجاهد وقاتل حتى أبلغهم هذا المكان .

أضف إلى ذلك أشياء أخرى رآها المنصور من كبرياء أبا مسلم وتعاليه عليه ، كل هذا كون حالة من القلق النفسى والترقب والترصد . وكأنما كان يطمع أبا مسلم أن يقيل المنصور ، وكان فى خاطر المنصور نفس الرغبة .

وقد انتهى الامر إلى نهايته التى كان لابد أن ينتهى إليها . . .

وقال المنصور ما فى صدره لأبى مسلم قبل قتله . وهو يدل على مدى الحقد الذى كان يملأ نفسه : قال له أنهم لوكانوا أرسلوا أمة لفعلت ما فعله . وعاتبه على أنه قدم نفسه فى الخطاب وتقـدم عليه فى موكب الحج وطاب خطبة أخته .

وكان هذا الصراع طبيعياً فقدكان أبا مسلم قوة مستقلة بنفسها عن الخلافة وكان معه الجند ، وبذلك كان يخشى أن يغير أى شىء فضلا عن إحساسه بأنه هو الذى أمكنهم من السلطان .

ويبدو هنـا العجب فى أنهم جعلوه منهم « آل البيت » ثم سحبوا هذا الاستلحاق ، بعد أن أتم مهمته .

وفى طريق الموت ، وفى موقفه ، تنكشف النفوس وتتعرى وتذهب منها الصولة وتبدو خالية من زيوف المظهر . فهذا أبا مسلم بين يدى المنصور وهو قاب قوسين من الموت وعبارات المنصور الملتهبة تلقى عليه ويحس هو الموت وبراه قريباً منه فتزول عنه كل معالم الجبروت والصولة وتنمحى كل مظاهر الكبرياء والأنفة وتنطوى تلك الصفحات التى كان أبومسلم فيها طاغية يقتل على الظن وتنحنى له الجباه ولا يقف أمر دون إرادته الفاتكة ، فتراه ذليلا ضارعاً . وينجلى من الناحيـة الأخرى الغدر والعسف وانتقاص الحقائق الواضحة .

ـــ لا يقال هذا لى بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى

ـــ لو كانت أمه مكانك لأجزت ناصيتها . إنما عملت ما عملت فى دولتنا وبسلطاننا ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا .

— يا أمير المؤمنين استبقيني اعدوك .

— لا أبقاني الله إذن . وأي عدو وأعدى لي منك .

وسقط أبو مسلم في دمائه وانتهت حياته وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وانطوت صفحته على هذه الصورة الرهيبة . حيـــاة كلها دماء وحروب وخداع وغدر .

كم قتل أبو مسلم على الظنة من أناس اتهمهم وشك فيهم ، وكم سهر الليـالي يجالد القدر ليقيم دولة ، فاذا ما قامت به كان هو وقودها .

ومقطع القول في هذا أن أبا مسلم استأمن فلاه الغرور بالنصر ولو كان ظل وفيا للذين عمل معهم لمضت الدولة قوية عزيزة ولظل له مكانا فلما تأهب للغدر غدر به .

منذر بن سعيد

أنفق الناصر ٣٠٠ ألف دينار كل عام على بناء الزهراء . وظل على ذلك خمسة وعشرين عاماً . وجلب لها زخارف الدنيا وبدائعها . ألف سارية من أفريقيا . وحوضاً منقوشاً بالذهب غريب الشكل . وجعل على الحوض إثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى . ويخرج الماء من أفواهها . وبنى بركة واسعة عليها أسد عظيم الصورة . شديد الروعة مطلى بالذهب . وعيناه جوهرتان لها لمعان شديد يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد . فيدفعه فى البركة من فمه فيبهر الناظر .

وغضب منذر لذلك أشد الغضب . ومضى ينصح لعبد الرحمن . ويتناوله بالنقد جاهراً غير مبال . فأراد الناصر أن يرضى الناس فبنى مسجد الزهراء وحشد له ألف عامل . وفرشه بالرخام المرمرى وجعل فى وسطه فوارة يجرى فيها الماء .

وعندما وقف منذر على المنبر بعد ثلاث أسابيع انقطعت فيها الصلاة الجامعة قرع الناصر وقال انه انصرف إلى الزخرفة والبناء عن عزو الأعداء ومغالبة الفرنجة وبدا بالآية الكريمة : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون . . . »

وظل منذر يردد معانى الإيغال فى الترف وحب البناء والإقامة والإعراض عن الجهاد حتى دمعت عينا الناصر . وإن كان قد عتب على منذر تقريعه . ولكن الناصر كان يقدر الإمام قدره . ويرى له مكانته وعدله فقد ذهب

المنافقون يغرونه بعزل منذر فرفض وقال « أمثل منذر فى فضله وورعه وعلمه يعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن الرشد : وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر فى ورعه وصدقه » .

والتف الناس حول منذر الذى عاد إلى بيته من نفس الطريق . وأخذوا يخوفونه غضب الخليفة . فقال لهم فى بساطة : إن رضا الناس لا يوازى غضب الله وأن سطوة الله أعظم من سطوة أمير المؤمنين . وقيل له لو التمست رسولا للخليفة ليزيل ما فى نفسه فضحك ابن سعيد وقال : إن معى ربى سيهدين

وذهب القاضى إلى بيته حيث لا يخرج منه إلا ليؤدى الصلوات . واستدعاه الناصر لمقابلته : فلبس رث الثياب وأردأها . ودخل عليه مجلس الذهب حيث فرش بأصناف الديباج وفاخر الرياش . وجلس ابن سعيد فى آخر المجلس فأومأ إليه الناصر أن يقترب . فقال أمير المؤمنين إنما يقعد الرجل حيث ينتهى به مجلس ولا يتخطى الرقاب .

وكان منذر مطرقاً وهو يتحدث . فقال له الخليفة : ماتقول فى هذا القصر العظيم . ورفع رأسه لأول مرة وقلب النظر فيما حوله ، فى الصرح الممرد من قراميد الذهب والفضة وأجاب : « ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً » .

وبلغ الأمر من ذلك أن خاف ابن طاووس وكان يجلس إلى جواره أن تأخذه غضبة السياف فقال فضممت ثيابى خوف أن ينالنى دمه .

ورجع القاضى إلى بيته وجاء من أسر إليه بأن الناصر أمر بنقض سقف القبة واستبدال قراميد الذهب والفضة بقراميد الآجر وأمر بهدم التماثيل فى مجلس الذهب .

هذه هى الصورة التى ترسمها كتب التاريخ لمنذر بن سعيد قاضى الأندلس الشخصية البارعة الجريئة التى عرفت ببلاغة الخطابة . وعدالة الحكم . وقوة الحجة . وعمق الفهم . والفقيه الذى طوف بلاد المشرق حيث تلقى العلم والفقه ونبغ فى فهم الأدب والتاريخ وتذوق الشعر والفنون المختلفة . والمجاهد الذى هاجم الصليبية فى الأندلس كله .

وقد كان منـذر مفطوماً عن الشهوات عزوفاً عن الترف والأهواء . قد جعل الله عقله أكبر من عاطفته . فبهر النـاس بخلقه ورجولته ونزاهته . حتى لقد ألزم الناصر الحق مرات عدة . لقد كان منـذر مثلا للأئمة الأول الذى عرفتهم عصور الإسلام فى قوته وازدهاره . مثـلا فى النصح والتسديد وقول الحق وخشية الله وحده . وكان إلى ذلك حاضر البديهة جيد النادرة لبقـاً . حلو العبارة فيه من روح النبوة وشمائلهـا . وقد عرف بالاجتهاد ولم يتقن فى الإفتاء غير مذهب مالك . وأفسح للناس فى الرأى وبسط وجوه الشريعة .

عز الدين عبد السلام

كان العلماء والأئمة والفقهاء فى ذلك العهد — آية فى الزهادة فى الدنيا والغض عن متارفها — والإنزواء عن بهرجها والإزورار عن مباهجها . كانت فى أرواحهم جذوة إيمان عميق بالله . وخشية لله . وورع يجعلهم يغضون عن كثير من الحلال حتى لايقعوا فى شبهة الحرام . ولم يكونوا يخشون غير الله لا يرهبون سواه . ولذلك كانت كلمتهم مسموعة . ودعائهم مستجاب . وتوجيههم أمر وتضحيتهم هى القول الفصل .

وكان من هؤلاء طاووس وسعيد بن المسيب وعز الدين عبد السلام ومنذر بن سعيد . وكما عرف منذر بقوة شخصيته فى موقفه من الناصر لتركه الغزو وإخلاده إلى الترف وبناء القصور ، عرف عز الدين بموقفه من أمراء المماليك حيث صمم على بيعهم وصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين . وقال لهم فى ذلك إن الملك الصالح اشتراهم من بيت المال ، ولذلك فلا يجوز أن يحكموا مصر وهم أرقاء . ولا بد أن يعقد لذلك مجلس وينادى عليهم وبذلك يعتقون وقد عارض الأمراء أولا ولكنه أصر وصمم فلما أصروا غضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته حماراً آخر . ومشى خارجاً من القاهرة . ولحقه العلماء والتجار فردوه . ونادى على الأمراء واحداً واحداً وباعهم وقبض ثمنهم وصرفه فى وجوه الخير .

ولما أراد السلطان قطز أن يأخذ من الناس ضرائب جديدة ليستعين بها على قتال التتار . اعترض عليه وقال أنه لا يجوز أن يأخذ من الرعية شيء إلا بعد أن يبيع العلماء ما عندهم من المطارف أولا .

وكان الشيخ عز الدين قد جاء إلى مصر بعد أن اختلف مع السلطان فى دمشق فقد عقد نجم الدين صلحاً مع الفرنجة وسلم إليها صيداً . وقلعة الشقيف

من حصون المسلمين . ودخل الإفرنج دمشق لشراء السلاح فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة . وأفتى الناس بتحريم مبايعتهم لأنهم يقاتلون المسلمين وقطع خطبه الصالح وزاد فى آخر خطبته قبل أن ينزل من المنبر « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً » فاعتقلوا الشيخ وحاولوا صلحه فرفض وقال : إنه السلطان ظالم فلما جاء ملوك الفرنجة وجدوه فى خيمة يقرأ القرآن فلما عرفوا أنه أكبر قساوسة المسلمين وأنه حبس لإنكاره تسليم الحصون إليهم قالوا لو كان هذا قسيساً لغسلنا على رجليه .

وعرف عز الدين بمواقفه الجريئة أمام ظالم السلاطين فى مصر والشام . واشترك محارباً خلال إقامته فى مصر فى مقاومة الفرنجة فى المنصورة . واستطاع إبطال المكوس ورفع المظالم ورفض هدية السلطان وكانت ألف دينـــار . وأنكر ولايه شجرة الدر . وزادت إقامته فى مصر على عشرين عاماً وبلغ مرتبة الاجتهاد . ولبس خرقة التصوف . وكان ينادى الملوك بأسمائهم وأبطل صلاة الرغائب ونصف شعبان . وسلمت إليه الفتيا وأسقط شهادة الوزير الجائر وعزل نفسه من القضاء .

محمد الفاتح

وهذا علم من أعلام الفتح استطاع أن يكتب اسمه بحروف من نور ويسجل فخراً للإسلام عجز عنه المسلمون وطمعوا فيه ورغبوا إليه منذ منتصف القرن الأول عند ما أعد معاوية الشواتى والصوائف لحصار القسطنطينية من البر والبحر ثم عادت مرات ومرات خلال سنوات متوالية دون أن تنال شرف هذا الفتح الذى حققه محمد بعد ذلك بتسعة قرون .

ومحمد الفاتح شاب استقبل حياته بأمل ضخم ورغبة ملأت عليه نفسه هى فتح القسطنطينية وهو أمر لم يكن يتخيله متخيل لأنه أقرب إلى المستحيلات . ولكن محمد أحال هذا الخيال المستحيل إلى حقيقة نافذة وفى هذا الحادث وحده نجد شخصية الرجل المغامر الطموح .

لقد كانت القسطنطينية رمز الحضارة الأوربية وملاذ الديانة المسيحية وكان الاستيلاء عليها عنوان على تحول ورمز على انقلاب فمنذ وقعت القسطنطينية فى قبضة الأتراك بدأت صفحة جديدة من صفحات التاريخ فى الشرق والغرب . كان محمد هو كلمتها الأولى . .

وهو عند كثير من الباحثين من أعظم صناع التاريخ وقد عرف محمد الفاتح منذ شبابه بحبه للتفوق وميله للسيطرة والطموح وحسن معالجة الأمور . وكان الإسكندر المقدونى هو الشخصية الأولى فى تقديره . ولعل توليه الملك فى سن الحادية والعشرين ومباشرته الحكم فى حياة أبيه مما جعله أكثر خبرة للأمور وتجربة للرجال .

وقد ورث محمد عن أبيه الجلد والشجاعة وشدة المراس والصبر على المكاره وشغف منذ صباه بأمور الحرب ووضع الخطط الحربية وحصار المدن .

وقد أتاحت له الوراثة مزيداً من كمال الشخصية فقد كان أبوه من سلالة

آل عثمان وكانت أمه مسيحية فكأنما امتزج الشرق والغرب فى كيانه ولذلك لم يكن متعصباً أو ضيق الأفق وعزف محمد عن الترف وأحب الخشونة فى طعامه وملبسه وأخذ نفسه بالعظيم من الأمر . فلم تكن له محظيات ولم يكن يألف مجلس الندماء وكانت العزلة والوحدة حبيبة إلى نفسه فطهرت روحه من عوامل الاختلاط التى عرفتها قصور الملوك والخلفاء .

ووصف بأنه قمحى اللون متوسط الطول متين العضلات فارس . طموح سريع البديهة . تعلم عدة لغات أجنبية وحرص على قراءة سير العظماء والأبطال وخاصة القياصرة .

ولذلك فانه ما كاد يبدأ فى حملة القسطنطينية حتى أحكم الخطة ودرس مختلف الاحتمالات ثم كتم أسراره حتى بدأ التنفيذ فى قوة وإحكام .

وكانت الحرب مدى شغفه حتى كان يسرع إلى التعرف لكل جديد فى أساليبها واختراعاتها . وكأنما كانت فكرة افتتاح القسطنطينية تملأ عليه حياته فعاش يحلم فيها ويفكر بها ويرسم لها الخطط .

ولعل أبرع ما فى خطته كلها نقل البواخر الحربية الضخمة من بحر إلى بحر ومن بوغاز إلى بوغاز وفق أسلوب لم يعرف من قبل فى الحرب . حتى لقد فاجىء العدو أعنف المفاجئة . فاعجزه عن مقاومة خطة جريئة عجيبة لم يكن مستعداً لها أو يحسب حسابها .

وقد نجح فى الغزو من البر والبحر بالرغم من القلاع الضخمة وبالرغم من قوة العدو وتمكنه من استحكامات بلاده .

ولما دخل محمد الفاتح القسطنطينية اتجه إلى كنيسة أيا صوفيا وقبل أن يدخل بابها سجد على الأرض شكراً لله ثم حمل حفنة من ترابها ووضعها على رأسه . فلما أتم صلاته ودعاءه نهض ودخل الكنيسة وأحالها مسجداً وجمع فيها رجاله . . فصلوا صلاة الفتح . .

وأصبح يوم ١٥ ابريل ١٤٥٣ يوماً خالداً .

محمد بن القاسم الثقفى ٧

هذا فتى فى السابعة عشرة من عمره ملأت نفسه حماسة الإيمان وحرارة اليقين وفروسية الفتح فذهب إلى عمه الحجاج يطلب إليه أن يوليه أمر الحرب لقد هزته أنباء الهزيمة التى منى بها من ساروا إلى ثغر السند فقد قتل ابن نبهان وبديل وهو يريد أن يأخذ بثأر هؤلاء الفرسان البواسل ويمضى مندفعاً إلى هذا الوجه غازيا فى سبيل الله فاتحا فعقد له الحجاج وأرسل معه ٢٠ ألفاً من من المقاتلين منهم ستة آلاف فارس من جند الشام فمضى بهم فى البر بينما كان الأسطول يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة فى البحر محاذياً لهم . وقد حمل معه خمس مجانيق ضخمة يلقب أكبرها بالعروس .

ومضى بن القاسم بجيشه متتبعاً ساحل البحر حتى وصل إلى الديبل بعد أن قطع صحراء كرمان ومكران وكان الاسطول قد لحق به . فما أن بلغها حتى خندق وركز الرياح ونشر الأعلام وأنزل النـــاس على راياتهم ونصب منجانيقه الضخم « العروس » وراح يضرب الصنم الأكبر الذى أقامه أهل الديبل محطما إياه . وكان يعمل فيه خمسمائة رجل وكان صنم الديبل يرتفع فوق هيكله الضخم سارية ضخمة عليها راية حمراء واسعة الأطراف . فما أن بدا يتحطم الصنم حتى تحطمت معه قلوب العابدين وأحسوا بالهزيمة تملأ نفوسهم .

ولمـا أحس أبى القاسم بأنه على وشك النصر هاجمهم فارتدوا إلى داخل الصنم . وأصعـد إليه على سلم منصوبة واحد من رجاله الأبطال ففتح حصن الصنم ومضى يضرب المسلمون فى خصومهم حتى هزموهم واختط للسلمين مسجدا وبنى لهم مدينة وأنزل أربعة آلاف نهم وسار فى طريقه مع النهر يريد زاهراً عظيم السند وجيشـه فاستولى فى طريقه على بيرون وفتح سهبان وسلمته له سدوستان .

وعبر ابن القاسم نهر مهران حيث واجه الملك زاهر وجيشه على ظهور الفيلة . ووقع صدام بين خيول العرب وفيلة الهند فكانت الخيول أثبت فى هذا المجال . وما أن بدأ القتال حتى هربت الفيلة بعد أن واجهتها قذائف النفط الملتهب فهاجت وأحرقت هوادجها وألقت من كان على ظهورها من الجند تحت سنابكها وقتل الملك زاهر وتمزق جيشه وتراجعت فلوله . وبذلك دان السند للشاب الفتى محمد بن القاسم الثقفى . واستولى محمد على مدينة راور ثم زحف إلى الرور لحاصرها واستولى عليها ثم قطع نهر بيامس إلى الملتان أعظم بلدان السند العليا . وهكذا أتيح لمحمد بن القاسم فى هذه السنوات الست أن يحصل على هذا النصر المؤزر وقد علت سنه فبلغ الثالثة والعشرين من العمر فهابه القوم وعلت مكانته ولمع إسمه وبدا كأنما يكتب له المستقبل صفحة رائعة . ولكن القدر كان له بالمرصاد فقد مات الحجاج فى ذلك الوقت ثم مات الوليد بن عبد الملك وولى الخلافة سليمان الذى كان يكره الحجاج وأهله فسرعان مالحقه من الحجاج طرف من الأذى ولم يذكر له فضله فى الفتح والجهاد

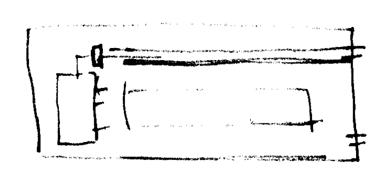
لقد كان هناك خلاف بين الحجاج وبين سليمان بن عبد الملك . ولكن ما ذنب بطل السند وقد كان بعيدا عن مسرح الحوادث هناك فى الفتح لرفع راية الإسلام .

وجاء الأمر بعزل ابن القاسم عن أمارة السند وقدم الوالى الجديد يزيد ابن ابى كبشة فأخذ ابن القاسم بعنف . وقيده فى الأغلال . ووضعه فى المحبس والحديد فى يديه ورجليه .

ولكن اهل السند الذين احبوا ابن القاسم تأثروا من اجله وبكوا عليه فقد أحبوه وأكبروا رجولته وبطولته وكانوا أشد ما يكونون جزعا من أجل سجنه .

ولكن خصوم الحجاج أرادوا إمعانا فى التنكيل أن ينقلوه إلى بلده إلى مدينة واسط ليظل هناك سجيناً فى أصفاده . يسام العذاب كل ليل وكل صباح . وقد تلقى السجن والعذاب صابراً محتسبا وكان فى محنته شجاعا صامداً .

وانتهى الأمر بأن ألصقت به تهمة أخذ بها وقتل . ويقال أنه وضع فى أديم بقرة ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ففاضت روحه .



عقبـــــة بن نافع

يعطى عقبة بن نافع صورة فرسان الآساطير فى اندفاعه نحو الفتح وفى إيمانه بالجهاد فقد صمم على اكتساح أفريقية حتى يصل إلى المحيط الأطلسى . وظلت الأمنية فى نفسه فكرة تتجدد على مر السنين منذ وطأت أقدامه أرض المغرب فى عهد عمر بن العاص ولكنه ما كاد يتأهب للخروج إلى الغزو حتى غزله أبو المهاجر فبقى ست سنوات فى المغرب ينتظر الفرصة المواتية .

وكانت هذه السنوات قد أتاحت له فرصة واسعة للدرس والبحث ومكنته من تكوين فكرة واضحة عن البلاد بعد أن اتصل بأهلها وعرف أخلاقهم وتنقل فى ربوع البلاد ودرس مسالكها .

وقد كان عقبة يحب الفتح ويصرف نفسه إلى الجهاد ويكاد يوقف نفسه على الغزو حتى أنه انصرف عن الفتنة السياسية التى ألمت بالمسلمين عشر سنوات ولم يجعل فى نفسه غاية أعظم من الفتح والوصول إلى ساحل المحيط . وزاد هذا إصالة فى نفسه ان أبوه نافع بن القيس كان فاتحا ذا شأن .

وأضاف عقبـــة إلى إيمانه هذا وطبيعته الدينية المتجردة فهم الأساليب الحربية ودروب البلاد وأماكن الغزو واستطاع ان يصل إلى قواعد ثابتة فى هذا الاتجاه فى مقدمتها بناء مدينة للجند يسكنونها ويتحركون منهـا إلى الفتح ثم يعودون . والتوغل فى البلاد وغزو البربر دون الاكتفاء بغزو مدن الساحل ونهبها والعودة بالغنيمة كما كان يفعل المسلمون ولذلك فانه ما كان يلى أمر الفتح حتى اتجه إلى بنـــاء القيروان وإسكانها للجند وفتح بعض واحات الصحراء . وهذا الاتجاه يعطى له صورة الرجل البنـــاء الذى يرسم خطة الإستقرار ومضى فى عشرة آلاف من المجاهدين يزحف وجموع البربر ترده

ولكنه استطاع أن يخترق تونس والجزائر ويدك الحصون والقلاع حتى بلغ موضع القيروان .

وما كاد يحقق هذا الأمل من آمال جهاده حتى عزله أبو المهاجر عن القيادة ولم يكتف بهذا بل أساء إليه ونال منه وغض من آثاره وأخذ الناس يتركون القيروان فأصبحت خلاء .

وقد وقع العزل فى نفسه موقعا سيئا ولكنه ظل ينتصر ويترقب اليوم الذى يستطيع فيه ان يستأنف جهاده فيدخل الصحراء ويترك الساحل .

ولم يلبث معاوية ان علم بأمر عقبة وما اخذه به ابو المهاجر من المهانة والسجن الشديد حتى أرسل يأمر بتخلية سبيله إرساله إليه ، ثم أعاد معاوية عقبة إلى عمله فجدد القيروان وبدأ يستأنف الفتح بعزيمة جبارة فسار إلى بلاد الزاب مصمما على اكتساح افريقية حتى المحيط الأطلسى . وفى طريقه انتصر على الروم وحاصر مدينتهم . وفى « اربة » هزم جموع الروم هزيمة منكرة ثم اتجه بعدها إلى تاهوت وهناك جمع له البربر جموعا عظيمة لسحقه . ولكنه انتصر عليهم ومضى إلى طنجة . ومن طنجة وقف عقبة ونظر إلى الشاطىء الآخر حيث تستوى اسبانيا وفكر فى اقتحام البوغاز اعلاء لكلمة الله . ولكنه فضل ان يتجه جنوبا إلى بلاد السوس الأدنى حيث هزم البربر فى معاقلهم وسار متجها غربا يفتح البلاد ويدك القلاع .

وظل عقبة يفتح البلاد حتى وصل إلى شاطىء المحيط . .

وكانت لحظة رهيبة فى حياته . املا ضخما عاش يحلم به طويلا ويطوى نفسه على رجاء فى ان يحققه يوما فقد امتلك حب الجهاد قلبه ودفع عقبة فرسه فى البحر حتى كاد يغمره . . . وهو يتطلع إلى المحيط باتساعه ولا نهائيته وقال قال كلمته الخالدة .

« والله لو اعلم ان وراءك ارضا لذهبت إليها غازيا فى سبيل الله » .

وعاد عقبة وقد ارتاحت نفسه وامتلأ قلبه بشعور جياش بالغبطة على أن أتم الله له نعمة ارتياد المغرب كله غازياً فى سبيل الله

وهكذا تتجلى شخصية عقبة فى أنه آمن بالجهاد وهب نفسه له وعاش يترقب الساعات التى يتيح له أن يهب نفسه لهذه الغاية العليا وقد أخذ عليه أنه لم يكن يرسم خطة حربية منظمة وأنه كان يندفع فى طريقه لا يهدف إلا إلى جهـــاد يحارب فيه البربر ولكنه لم يكن يترك حاميات كافية فى البلاد المفتوحة ولذلك كانت لا تلبث أن ترتد مرة أخرى . وأخذ عليه أنه انتقم من أبى المهاجر وحمله معه فى أسفاره زيادة فى تعذيبه والإساءة إليه . وقد كان أولى به وهو الرجل الذى وهب نفسه لله أن يرتفع عن الإنتقام .

ويعطنيا عقبة بن نافع فى مجموعه صورة المجاهد لا صورة الفاتح . المجاهد الذى ألقت إليه الظروف أن يصل إلى المغرب فيعيش فيه ويتمنى أن يقطعه بالعرض فيتحقق له ذلك ويصل إلى المحيط ويشعر بأنه قد أعذر إلى الله فى التوقف عن الفتح حيث حال دونه العباب الضخم الذى لا تصل العين إلى نهايته

أبو عبيدة

ليس أروع تصويراً لشخصية أبو عبيدة من عبارة رسول الله عند ما قدم وفد نجران على النبي فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطينا فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين ورددها ثلاثاً . ثم قال قم يا أبا عبيدة . إن لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة .
هكذا كان الرسول يصور أبو عبيدة ويضعه بين أصحابه . روى ابو بكر الصديق قال : خرج رسول الله ونحن نتحدث فسكتنا فظن أننا كنا فى شيء كرهنا أن يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : ما من أصحابى إلا وقد كنت قائلا فيه لا بد إلا أبو عبيدة ».

وتاريخ ابو عبيدة فى الإسلام يعطى صورة رائعة لهذا الرجل الذى كان موضع ثقة رسول الله وتقديره فقد كان من صفوة المهاجرين إلى الحبشة والذين اشتركوا فى بدر وأحد وحمل راية الرسول يوم فتح مكة . وثالث ثلاثة يوم السقيفة وهو الذى قتل أبوه يوم بدر حيث كان فى صفوف المشركين إذ تصدى عبد الله الجراح لابنه أبو عبيدة . فاعرض عنه ابو عبيدة . فتصدى له بعد ذلك مرات . واندفع فى الرابعه يضربه بالسيف فقتل أبو عبيدة أباه وكان هذا اروع صور الايمان بالدين الجديد أن يقتل الابن أبوه فى سبيل العقيدة . وفيه نزلت الاية « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب الله فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » .

وثبت أبو عبيدة حول النبي فى احد . فقاتل عن يمينه وعن شماله . ونزع المغفر عن وجنة رسول الله حيث أخذ بثنيته احدى حلقتى المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية ابى عبيده ثم اخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى

فاخرجها وسقطت ثينية .

ويوم السقيفة قدمه عمر بن الخطاب وقال له « امدد يدك ابايعك فانت على لسان رسول الله امين هذه الأمة . فانبرى له يقول : اتبايعنى وفيكم ثانى اثنين . ما رايت لك فهه قبلها منذ اسلمت . اتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين . فلما تكلم مدح الأنصار وذكر فضلهم فلانت نفوسهم وكان ذلك عاملا من عوامل كسب الموقف .

ولما فتح حمص اخذ اهلها بالرافة والرحمة فلما جلا عنها اعاد إلى اهلها الجزية وقال يا اهل حمص قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على امركم ولا حاجة لنا فى اموالكم .

ولما ولى ابو بكر خالداً قتال العدو قال لأبو عبيدة « قد وليت خالدا قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له واطع فانى وليته عليك . وانا اعلم انك خير منه . ولكننى ظننت ان له فطنة فى الحرب ليست لك » .

فلما توفى ابو بكر اعاده عمر ولاية القيادة العامة وعزل خالد عنها فكتم الأمر عنه حتى تنتهى المعركة ورفضت نفسيته السمحة الكريمة ان يفاجىء خالد بالعزل حتى فتحت دمشق .

وقد ظل كتم الأمر عن خالد عشرين ليلة حتى علم به خالد وفاتحه فيه . وقال له : يغفر الله لك . جاءك كتاب امير المؤمنين فلم تعلمنى وانت تصلى خلفى والسلطان سلطانك . قال ما سلطان الدنيا اريد . وما للدنيا اعمل وان ما ترى سيصير إلى زوال .

واقام ابو عبيده فى الشام يؤسس الحياة ويبنى المجتمع ويضع روحه القوية فى الإنشاء وهو طابعه النفسى فى الزهد والتقشف والترفع عن الدنايا وظل بين جنده الذى يحبه حتى جاء طاعون عمواس وبدا يتفشى فى الجند ..

وعلم عمر بالأمر فأراد ان يحتال عليه ليرده إلى الحجاز فكتب اليه يقول : انه قد عرضت حاجة عندنا لاغنى فيها عنك فاذا اتاك كتابى هذا فانى أعزم عليك ان اتاك كتابى ليلا ان لاتصبح حتى تركب . وإذا اتاك نهارا ان لاتمشى حتى تركب إلى . فلما وصل إليه الخطاب قال لقد عرفت حاجته . يرحم الله عمر . انه يريد ان يستبقى ماليس بباق . وارسل إليه يقول : لقد عرفت حاجتك التى عرضت لك فخلى من عزمتك يا امير المؤمنين فانى فى جندى ولا ارغب بنفسى .

وجاءه عمر يزوره ويطلب اليه ان يعود معه فروى له حديث رسول الله عن الوباء وانه إذا كان فى ارض فلا تدخلوها ولا يخرج منها من كان فيها وعاد عمر وهو يبكى ويودعه الوداع الأخير . فلما جاءه الموت قال لمن حوله ان قولوا لعمر انه لم يبق من اماناتى شيء إلا وقد قمت به واديته اليه وقالوا انه لم يكن فى بيته إلا سيفه وترسه وكان يردد دائما حين يسأل عما لو اتخذ متاعا بأن ذلك سيبلغه المقيل .

ولما ادركت الوفاة عمر هتف فى سكرات الموت يقول : لو ادركت ابا عبيدة لاستخلفته وما شاورت فاذا سألنى الله عنه قلت : استخلفت امين الله وامين رسوله ....

قتيبة بن مسلم

ان قتيبة بن مسلم هو أحد هذه المنارات السامقة فى تاريخ الفتح الإسلامى هولاء الذين كان كل منهم علامة على مرحلة من مراحل الطريق الطويل . وعنوان صفحة من صفحات المجد الاثيل .

وإذا كان عقبة بن نافع قد اندفع فى أفريقيا حتى وصل المحيط ودفع حوافر فرسه فى الماء وقال كلمة المشهورة الخالده . فان محمد الفاتح يمثل قمة من هذه القمم : هى فتح القسنطيطنيه . وكذلك طارق الذى عبر البحر لأول مره فى تاريخ الاســـلام وحرق مراكبه حتى لايدع لجنده أملا فى العودة إلى المغرب .

وكما يقف خالد وصلاح الدين وسعد ونور الدين وبيبرس . يقف كل منهم على رأس طريق كذلك يقف قتيبة على رأس الطريق الضخم : طريق المسلم المغامر الذى اندفع من مزارع الزيتون فى الشام حتى وصـــل حدود وصل حدود الصين فوطأ أرضهـا وختم ملوكها وحمـل الجزية منهـا إلى أمير المؤمنين .

ولولا أن قتيبة من المجاهدين الذين وهبوا انفسهم للفداء لمـا ذهب إلى اقصى الأرض . ولولا ايمانه بالظفر والشهادة لما قطع هذا الطريق الطويل يفتح المدن ويفض الحصون ويزلزل القلوب ويذل الأعداء . وقد وقع له هذا كله قبل أن ينتهى القرن الأول الهجرى وفى الفترة التى استحرفيها الخلاف حول الحـكم والسطان فلم يحل بين المجاهدين وبين الاندفاع فى الأرض لرفع رايه الدين واعلاء منار الإسلام .

كانت أمنية الجهاد تملأ روحه فما أن ولاة الحجاج على خراسان حتى بدأ يتطلع إلى الفتح فخرج إلى بلخ . ثم أغار على الصغد وقاتلهم قتالا شـديدا

فانهزموا وتفرقوا . ثم واصل فتوحاته حيث فتح بخارى بعد عنت شديد وواصل زحفه على مدن خوارم . وغزا سمرقند ففتحها بعد قتال جبار ثم سار إلى فرغانه فاستولى عليها وبلغ خجندة فاشتبك مع أهلها فى حرب طاحنة أحرز فيها نصراً مبيناً ثم انصرف إلى كاشان . .

وهكذا ظل يقطع الطريق فى قلب آسيا متجها إلى الصين فقد كان ذلك أمله وبعث اليه خليفة المسلمين يشجعه على المضى فى طريقه ليرفع أعلام الاسلام فى كل مكان يحل فيه .

« اتمم مغازيك وأنتظر ثواب الله »

فسار إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف وأرسل إلى ملكها وفدا فاعادهم الملك ساخرا وقال لهم قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا ابعث عليكم من يهلككم ويهلكه ..

قال هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيلة فى بلادك وأخرها فى مناتب الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزاك أما تخويفك أيانا بالقتل فان لنا اجالا إذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه فلما أحس الملك بانهم جادون قال له ماالذى يرضى صاحبك

قال له هبيرة : أنه حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية .

قال الملك : فانا نخرجه من يمينه . نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعه غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا عليه فقبل الجزيه وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو .

وفى سمرقند وبخارى أمر باحراق الأصنام واقامه شعائر الأسلام ولما ارتدت بخارى عاد ففتحها .

ولكن مصيره كان اشبه بمصير محمد بن القاسم الثقفى فقد عزله سليمان وعذبه وقتله لانه كان من رجال الحجاج ومن الدين وافقوا الوليد على عزله من ولاية العهد .

وهذا مفخر فى تاريخ الخلفاء الذين كانوا يجعلون أمورهم الخاصه فوق أمور الدوله . ومثل ابن القاسم وقتيبه من أعلام الاسلام الذين قاموا باضخم الاعمال ركتبوا اسمائهم بحروف من نور لحق لهم أن يكونوا فوق الخلافات والخصومات .

طـــارق

تلفت نظرى فى شخصية طارق هـــذه العزيمة الذى وصفت بأنه أحرق المراكب بعد أن جاز المضيق ووقف بين جنده يقول : أيها الناس : أين المفر . البحر من وراءكم والعـــدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . . . » .

ومهما يكن من مدى صحه هـذه القصة فانهـا تعطى صورة لعزيمة طارق الجبارة ، هذا البربرى الأسود الذى أسلم فى المغرب وفتحت له أبواب المجد حين وكل إليه موسى بن نصير أمر الجيش الذى جهزه من العرب والبربر فى سبعة الاف مقاتل . ووقف على الأرض الجديدة وقد شغفه أن يخترقها وأن يكتب للاسلام فيها صفحة صفحات المجد والنصر فدفع جنوده واندفع معهم يقاتل فى قوة على هذه الصورة التى تحفظها الرواية الاسلامية « . . إنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوه ولا أحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . وإنما ابدأ بنفسى وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم « ردريك » فقاتله إن شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه وأحملوا بانفسكم عليه . . »

هذه المعانى أيا كانت الرواية فى إيرادها تدل على نفسية طارق وتعطى صورة عنه وعن وعن أسلوبه فى الحرب فهو يؤمن بأنه لابد من سحق قائد العدو فاذا تحقق له ذلك فقد انقضى الأمر . وقد فعل هـــذا طارق ونجح وتوغل ومضى يفتح البلاد فى قوة حتى أوقفه موسى بن نصير فلم يقف . وكيف يقف فى مثل هذا الموقف الخطير . .

وقد كان من نتيجة هذا بن موسى وطارق ذلك الموقف خطير وهو يدل على مدى

ما يملأ النفوس من الحقد والحسد فقد أحس موسى بأن البلاد قد ذللت له فاراد أن لايفوته شرف الفتح فجهز جيشا ودخل به الاندلس حتى التقيا على مقربة من طلبطله . وقد أوردت الروايات أن الأمر بينهما لم يكن إلا شراً مستطيراً على طارق فقد عاقبه على أنه أصر على المعنى فى الفتح بعد أن أمره بالتوقف وعزله عن الجيش ..

لقد اثبت طارق بطولة فذة فقد استطاع أن يشق طريقه إلى قلب هذه القارة الجديدة فى قوة . وأن يجاهد جهاداً ضخما فى سبيل اكتساب أرض جديدة ولم يكتف طارق بقواته فى أثناء زحفه بل طلب مدداً جديدا فارسل اليه موسى خمسة آلاف مقاتل وكانت معارك ضخمة بلغت فى أحدها قوات العدو نحــــو مائة ألف مقاتل ، قابلها طارق بجنوده الأثنى عشر ومع ذلك فقد انتصر .

ويبدو أمامى صورة طارق هذا المسلم الأسمر الفاتح الذى جاء من أفريقيا والذى عاشت فى أعماقه صورة الفتوح الإسلامية وهى تراوح المغرب وتعاود حتى استقرت فيه وصنعت هذا الصنف الحازم الحاسم ذى الشكيمة من البرابره أمثال طارق . وقد كان أهله من أصلب الناس وأشدهم تعصبا وايمانا فى سبيل الاسلام . وقد كتب لهم النصر دائماً .

ولم يعرف عن طارق أكثر من أنه محارب معصوم عن الشهوات . لم تغره مظاهر الحياة البراقة فى الاندلس ولم تفتنه صور الجمال فقد دخل الاندلس على أثر قصة اغتصاب لذريق ابنه الكونت يوليان حاكم سبته . الحسناء فلوريدا . ولكن هذا لم يكن فى حسابه مطلقاً فقد مضى يفتح بقوة وجعل نفسه فى مقدمة جنوده . واجب أن يموت فى سبيل كسب النصر . ولكن موسى بن نصير الذى ملأه النحو من النجاح الذى أحرزه طارق ــ وكان يظن أنه سينهزم . أزعجه هذا وغلبت عليه النزعة القبلية النزعة التى

كانت سائدة فى عهد الأمويين حين كانوا ينظرون إلى غير العرب على أنهم موالى . أزعجه أن ينجح هذا البربرى طارق فى فتح الاندلس وأن يوغل فيها فاراد أن يتوج هذا الظفر باسمه وأن يشارك فيه فامر طارق بالتوقف ولكن طارق وهو القائد المسئول فى ميدانه لم يكن فى اسطتاعته أن يتوقف لرغبة خاصة لا تدعو إليها شئون المعركة التى هو سيدها والمسئول عنها ولعله كان يرى أنه لو توقف لفت ذلك فى عضد جنوده أولما استطاع أن يؤمن نفسه فمضى يحارب ولكن موسى ابن نصير أزعجه هذا وضايقه ومضى يضربه بالسوط حين لقيه . .

وتوقف تاريخ طارق عند هذا الحد فلم يسجل له شيئا . ماذا كان مصيره بعد الفتح. لقد توقف الفتح وطلب الوليد بن عبد الملك إلى موسى أن يعود وهناك حلت به نقمة الله على يد الخليفة جزاء ماقدم فى الاساءة إلى طارق..

ولكن طارق : هذا الأسود الفاتح المؤمن كيف عاش وماذا كان مصيره وكيف مات .. هذا مالا تسجله صحف التاريخ . .

الليث

هذا العالم المصرى الذى كان فى منزلة الشافعى ومالك وأبى حنيفه لولا أنه غلب عليه الاتجاه نحو عمل الخير دون أن يكون من حوله مدرسة خالصة تحمل مذهبه وتذيع آرائه وتكتب اثاره وتاريخه . .

وصفه الشافعى بأنه أفقه من مالك : إلا أن أصحابه لم يقوموا به . وهو فقيه مصر . ولد بقلقشنده . وكانت له دار بالفسطاط .

وقضى شبابه نقى السيرة يستمع إلى كل من يصل إلى مصر من علماء المدينة والشام .. وأخذ بركاب ابن الزهرى .

وقد عرف بالغنى والنبل والسخاء وكان الناس يقصدونه ويعطيهم ورحل إلى العراق فأخذ عن علمائه . والتى الرشيد وافتى له فى أمر خطير « فقد جرى بين الخليفة وزوجه كلام : فقال هارون أنت طالق ان لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا . وبقى شيخ فى آخر المجلس لم يتكلم — هو الليث — فسأله . قال إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم فقال يدنينى أمير المؤمنين . فادناه فقال تكلم الأمان قال نعم . فأمر باحضار مصحف فاحضر فقال تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل . فلما انتهى إلى قوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال أمسك يا أمير المؤمنين : قل والله قال والله حتى فرغ اليمين. قال : انى أخاف مقام ربى فقال ذلك فقال يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليس بجنة واحدة . قال فسمعنا التصفيق من وراء الستر فقال له الرشيد أحسنت . وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بامره .

وقد عرف الليث بالاتجاه بالفقه إلى الناحية الروحية حتى لقد عد فى نظر البعض من أعلام الصوفية . وإن كان الليث قد أحاط بعلوم كثيرة

ولم يقف عند الفقه والحديث . ووصف بانه عربى اللسان . فقيه النفس يحسن القرآن والنحو . ويحفظ الحديث والشعر . حسن الذاكرة .

وكان إلى ذلك مؤرخا حجة فى تاريخ مصر الاسلامى . سجلها له الكندى وياقوت فى معجم البلدان . .

ولم يتولى الليث القضاء ، وإن كان المؤرخون يجمعون على انه دون ديوان الأحباس .

وقيل أن الليث كان يستغل خمسة آلاف دينار كل عام ، كان ينفقها على الطالبين والمحتاجين فلم تجب عليه زكاة قط . وروى أنه تصدق على سبعين بيتا من الأرامل . ثم بعث غلاما له بدرهم فاشترى به خبزا وزيتا . فاذا باربعين ضيفا يدخلون عليه فاخرج اليهم اللحم والحلوى . . وأكل هو الخبز والزيت ...

ولم يدون عن الليث فقهه فاندثر مذهبه وبقى الحديث عن كرمه .

قال قتيبة بن سعيد : قفلنا مع الليث من الاسكندرية ومعه ثلاث سفائن سفينه فيها مطبخه وسفينة فيها عياله . وسفينة فيها أضيافه . ولما احترقت دار ابن لهعيه وصله الليث بألف دينار .

وقد وقف الشافعى على قبره بعد وفاته وقال انه حاز أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم والعمل والزهد والورع .

سعد بن أبي وقاص

لعله مما لا يقع لقائد من قادة الجيوش أن يقود معركة وهو منبطح على وجهه . وفى صدره وسادة يشرف على الناس فى ميدان المعركة ويرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه وذلك هو ما وقع لسعد فى القادسية التى انتصر فيها المسلمون انتصارا مظفرا .

ولعله قد كره أن يدير المعركه من وراء ستار فيكون لذلك اثره فى تحطيم روح الجند فقال أحملونى واشرفوا بى على الناس وارتقى به من حوله . فلما واجه الناس هتفوا وهللوا فناداهم بقوله : إذا سمعتم التكبير منى فشدوا شسوع نعالكم فاذا كبرت للثانية فتهيئوا فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجر على الاضراس وأحملوا . فلما فرغ القراء كبر سعد فكبر الذين يلونه وهكذا .

وسعد هو الذى اقتحم دجله برجاله إلى البر الاخر وكان العرب لا يعرفون البحر فدفع ستمائة من رجاله على رأسهم عاصم بن عمرو على خيولهم فى البحر وتولى الفرسان العجب عندما نزلت الماء واندفع سعد بفرسانه الوفا مؤلفة إلى لجة البحر وأمتلأ النهر بالخيل فلم يكن ماؤه فى هذه الساعة . ما ليرى وقد وصف هذا اليوم فى وقائع المسلمين بانه معجزة إذ ساروا فى النهر بخيولهم كانما يسيرون فى البر وخرج الجيش من الماء تنفض خيوله أعرآفها وتصهل ودخلوا المدائن [illegible]عين رماحهم فى وجه عدوهم .

ودخل سعد إيوان كسرى . واتخذ الايوان مصلى . وصلى صلاة الفتح ثمان ركعات بتسليمة واحدة .

* * *

ولقد كان « سعد » من الرعيل الأول من المسلمين وقد اتيح له الاشتراك

فى الفتوح والمواقع التى قادها الرسول فاكسبه ذلك تلك الروح القوية الصادقة التى جعلته من قواد الإسلام الذين عملوا مع خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأبو عبيده كان منذ صباه المبكر صلبا قوى المراس يغلب عقله عاطفته حتى أنه عندما أسلم اختلف مع أمه التى عارضته فى دينه الجديد وبلغ من أمرها أنها قالت له :

يا سعد لتدعن دينك هذا أولا أكل ولا أشرب حتى أموت . فقال لها والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشيء . وكان الرسول يحبه ويقول عنه أنه خاله .

وقد جعله عمر من أصحاب الشورى الستة . وكان صاحب أول دم أريق فى الاسلام وبلغ من قوة إيمانه أن شج الرجل الذى عاب دينه ووقف بجوار الرسول فى أحد يدافع عنه فقال له الرسول : اضرب يا سعد فداك أبى وأمى وولى أمر الكوفة وهو الذى بناها .

ووقف موقف الحياد فى أيام الفتنه وزهد فى الخلافه وانقطع للعبادة .

وكان فى حياته متواضعا . ليس فى طبيعته الاندفاع . وقد اعطته مواقف القتال حكمة وحنكة وخبره . وقد عرف بالعطف على جنوده حتى أخلصوا له وكانوا يفتدونه وعرف بحدة البصر .

وقد وصف بأنه يعدل فى القضية ويقسم بالسوية ويبعد بالسريه ويعطف علينا عطف الأم البره وينقل إلينا حقنا .

ولا شك أن عطف القائد على جنووده والراعى لرعيته خلق من أنبل أخلاق الرجال ومن أسباب الظفر والنجاح .

ويبلغ قدر كرامته وعظمته أن عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة رغب فى أن يقود جيش الفتح بنفسه ولكن الصحابة أشاروا عليه بأن يبعث سعداً فرضى

لذلك واستقدمه إليه وأوصاه ودفعه إلى المعركة وكان من ذلك أن ظفر بالنصر فى موقعة القادسية . وهناك اختط الكوفة وأقام بها واليا حتى عزله عمر بعد ذلك لا عن عجز أو خيانة وقد ولاه عثمان الكوفة بعد وأطلق يده فى شئون العراق .

وليس أدل على مدى ذكائه وعقله وحصافته أن أعتزل الناس أبان الفتنة وعكف على التلاوة والعبادة ولم يشترك مع طائفة وقد دعاه إلى الخلافة بنوه فرفض ولم يستطع معاوية أن ينجح فى كسبه إلى صفه .

وهكذا استطاع سعد أن يكتب لنفسه صفحة بطوله فى الحرب وانصراف عن مطامع الملك ورغبة عن الصراع والفتنة فى السلم وكانما قد نقص يده من المغانم واستقام على مثل عال من السمو الانسانى قل أن نجد له نظيرا .

النعمان بن مقرن

كان النعمان فى طليعة الذين استجابو للدعوه الإسلامية عند ما بزغ فجرها . واشترك فى الوقائع كلها مع رسول الله . فلما ارتدت العرب بعــد أن لحق ألرسول بالرفيق الأعلى كان فى مقدمة الفرسان الشجعان الذين حملوا اللواء للدفاع عن الإسلام والذود عنه فقد خرج على ميمنه أبو بكر ثم خلفه الخليفة الأول على الكتائب ودفع به كل وجه فى أغراز كلمة الله .

واشترك فى فتوح فارس وكان فى الوفد الذى بعث به سعد إلى يزدجرد قبل المعركة يبلغه رسالة الاسلام فلما أوفوا على خيمته أختاره قومه ليكون هو هو المتكلم بأسمهم . فوقف يدافع عن الاسلام فى لسان بليغ وعبارة أخاذه قال « إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرفنا للشر وينهانا عنه ووعدنا على أجابته خير الدنيا والاخرة فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صارت فرقتين : فرقة تقاربه وأخرى تباعده ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأبهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح فان ابيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه ، الجزية فان ابيتم فالمناجزة فان أجبتم إلى دنينا خلفنا فيكم كتاب الله واقمناكم عليه على أن تحكموا باحكامه ويرجع عنكم وشانكم و بلادكم . وإن ابقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

ومضى كسرى يناقشه فى أنفه وهو يجيب عليه فى صرامة وقوة حتى قال له : أرجعوا إلى صاحبكم فاخبروه إنى مرسل له « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية ولم يدعهم حتى حملهم التراب ففرح به النعمان وذهب إلى

سعد فرحا يقول لقد جئناكم بأرضهم .. وجاء رستم واحتدم القتال وانتصر المسلمون وتحطمت مقاومة الفرس واندحروا وفروا ..

ثم ولى النعمان ولاية كسكر فضاق بها وكتب إلى الخليفة يطلب إليه أن يقذف به فى حومة القتال فما هو وهذه الولاية . لقد كره الاقامة والطمانينه وأحب أن يندفع فى ميدان الحروب يكابد الأهوال ويجالد الرجال .

واعتزم يزدجر أن يثأر للقادسية فجمع قواه وتأهب لمعركة فاصلة وكاد عمر أن يخرج من المدينة ليقف بنفسه فى وجه الفرس . ثم رأى أن يختار رجلا يستطيع أن يواجه هذا الخطر فكان النعمان بن مقرن .

وسار النعمان إلى نهاوند على رأس الكتائب الاسلامية فمضى يفتح وينتصر حتى بلغها فعسكر فيها حتى إذا دارت المعركة كتب الله فيها النصر للنعمان وأصحابه فقد استمر القتال ثلاثة أيام اضطر بها الفرس على الهرب تحت جنح الظلام .

ولكن إنى للنعمان أن يقنع بهذا النصر . أنه يريد أن يسحق هذه القوة سحقا ولذلك فهو يحتال عليها مرة وأخرى فى حصونها ويتهيا للشهادة يريد أن يكون أول شهيد فى هذه المعركة .

وقد حقق الله أمنيته فمضى يقتل ويقتل وهو على ظهر فرسه حتى زل قدمه فى بركة من دماء فبادره أحد الأعداء بضربة من سيفه ..

وهكذا مات النعمان فى حومة الوغى شهيداً بعد أن أمضى حياته مجاهداً فى سبيل نصرة الإسلام .

وهو رمز لهذه الشخصية الاسلامية التى قدمت نفسها فداء مثلا فى هذه الألوف المؤلفة التى استشهدت فى سبيل عقيدتها بعد كفاح وطويل لرفع راية الاسلام .

ولقد كان النعمان من هذا النوع المكيث الذى لا يسرع إلى الحرب حتى يثق من موقفه فضلا عن فهمه للروح العسكرية وتشبعه بها . وكان شجاعا مقدما لايهاب شيئا فيه عزمه وفيه فداء وفيه ايمان بالشهادة والموت فى سبيل الله لايبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

وكان بعد نظره وسرعة خاطرة وبراعة تدبيره من العوامل البعيدة الأثر فى بروزه وعلو قدره .

المثنى بن حارثه

هذا بطل من أبطال الإسلام . وعلم من أعلام الفتح . بدأ جهاده فى سبيل عقيدته قبل أن يكلف بالجهاد . ولكنه القلب المؤمن والروح الصادقة والنفس المتطلعة إلى المجد الراغبة فى رفع كلمة الإسلام وإذاعتها فى كل مكان ورفعها فوق كل كلمة .

قدم على النبى فى وفد قومه فى العام العاشر للهجره ثم عاد ينتظر الساعةالتى يتاح له فيها أن يعمل . فما أن أخذت جيوش العرب تتدافع فى عهد أبى بكر لتحفظ الاسلام من الرده ، حتى كان المثنى يغير على أطراف فارس وانصارها من العرب وبلغت باخبار فروسيته وانتصاراته الخليفة حتى سأل عنه عمر قيس بن عاصم فقال له : انه المثنى غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد وقدم المثنى على أبى بكر يطلب إليه أن يبقيه على قومه فأن فيهم أسلاما يقاتل به أهله وفارس وعاهده على أن يكفيه أهل ناحيته من العدو فقبل منه الخليفة الأول .

وعاد المثنى . فكانت له صولات حققت له الظفر وسمعت له العرب فاطاعوا وأذل الله المشركين .

فلما علم أبى بكر بهذه الانتصارات بعث بخالد بن الوليد قائداً عاما ليضم المثنى إليه .

ولم يزعج المثنى ذلك أو يضعف من إيمانه وحماسته وقوة عارضته بل عمل مع خالد وشارك فى جميع وقائعه . وولى قيادة الجناحين فى كل المواقع التى قام بها الجيش الإسلامى فى العراق .

فلما انتدب خالد للسفر إلى الشام أصبح المثنى هو قائد الجيش فى العراق ، فاقام بالحيرة حيث اتخذها مركزاً للقيادة .

ولم يلبث المثنى أن جاءته الانباء بان كسرى الفرس قد وجه إليه جيشاً عظيما يقوده هرمز جاذوية فى أكثر من عشرة آلاف ، وكتب كسرى إلى المثنى يقول له : إنى قد بعثت اليك جندا من وحش أهل الفرس إنما هم رعاه الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم .

فكتب إليه ألمثنى يقول . إنما أنت أحد رجلين . أما باغ فذلك شر لك وخير لنا . وأما كاذب فاعظم الكاذبين فضيحة عند الله وعند الناس الملوك أما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم إنما أحزرتم به فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

ووقع القتال بين المسلمين بقيادة المثنى وبين الفرس . وكانوا قداحضروا معهم فيلا كبيراً يخيفون به المسلمين فانتدب المثنى نفسه وجماعة من رجاله فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يضربون افيلتهم .

واحتاط المثنى فقصد إلى المدينة بعد هذه المعركة يطلب إلى الخليفة أن يعينه بالمرتدين من العرب الذين عادوا إلى الاسلام وحسن اسلامهم فلقى بو بكر وهو فى فراش الموت . فاوصى به عمر وقال له . انى لأرجوأنأموت يومى هذا فلا تمسى حتى تندب الناس مع المثنى ولا يشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم .

وفعل عمر قبل صلاة الفجر من اليوم نفسه. حض الناس على التجهزللسفر إلى العراق وتكلم المثنى فخض الناس على القتال وقال لهم لا يعظمن عليكم أمر الفرس فانا قد تبجحنا ريف فارس . وغلبناهم على خير شق السواد . وشطرناهم ، ونلنا منهم . واجتواء من قبلنا عليهم . ولها إن شاء الله ما بعدها

وعاد المثنى حتى لحق به أبي عبيد ابن مسعود الثقعى ومعه ٥ آلاف ممن استنفر من المسلمين .

وتاهب الفرس مرة أخرى لقيادة رستم لحرب المسلمين . ومضى المثنى يواجه الموقف بحزمه وحكمته . ورأى أن يسبق فضرب ضربته قبل أن يواجه الخصوم . فوقف موقف المهاجم وقد كان سببا فى النصر المظفر الذى حققه

وفى أكثر من معركة كان للمثنى مواقفه الحاسمة التى تدل على عقلية عسكرية جباره حين أصلح الجسر فى أحدى المواقع وحمى المسلمين من أن يلقوا بانفسهم فى الفرات وقال للناس : أنا ودونكم على مهل ولا تدهشوا ولا تخافوا وظل المثنى واقفا فلم يعبر إلا آخر الناس .

وتدل هذه الخطوط فى حملتها على رجل مكافح جلد لا يمل الجهاد والكفاح فى سبيل فكره وايمانه . وانه إلى ذلك فارس مغوار درب على الحرب والمواقع وتوفى المثنى متاثرا بجراحه فى احدى معاركه فى الوقت الذى سار اليه سعد ابن أبى وقاص فلما رأى نفسه على حافة الايديه كتب سعد تقريرا مطولا عن الموقف كله والخطط التى يقترحها وأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم وعلى أدنى حجر من أرض الجزيرة .

فلما بلغ سعد أرض الفرس مضى يكمل عمل المثنى وقد تزوج سعد زوجة المثنى واستانسى موقفها يوم معركة القادسية حين رأت سعد طريحا يواجه المعركة . وهو نائم على صدره وميمنه المسلمين تنحرف مرة وأخرى فلم تلبث أن صرخت باعلى صوتها « وامثنياه » كانها لاترى للمعركة رجلا يستطيع أن يضرب ضربته إلا المثنى الذى اختار رضوان الله .

اسد بن الفرات
قطرى بن الفجاءة
الظاهر بيبرس

أسد ابن الفرات القاضى الذى قاد أساطيل الفتح والفقيه العالم الذى تحول إلى أمير من أمراء البحر بعد سن الستين . ولد فى حران ثم ذهب مع أبيه إلى افريقيه ثم عاد إلى الشرق حيث زار الحجاز والعراق ومصر فأمضى بها عشر سنوات تلقى الفقه على مالك بن انس فى المدينة ومحمد بن الحسن فى بغداد واشهب بن عبد العزيز فى مصر . وألف كتابه « الأسديه فى الفقه » وقد كان لرحلته هذه أثرها البالغ فى نفسه ومستقبله فقد احتشدحوله الطلاب من كل مكان. وكان يقول « ضربنا فى طلب العلم أباط الأبل واغتربنا فى البلاد ولقينا العلماء وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه . ووراء سياج أمهويريدون بعد ذلك أن يلحقونا .

وقد كان له بلاغة وبيان ولكنه كان بالعلم أشهر . . . فقد كان من هذا الصنف من العلماء الذين يصغر فى أعينهم أهل الدنيا . ولا تملك عليهم سطوة السلطان ألسنتهم فيداهنوهم .

روى أنه دخل هو أبو محرز على المنصور يوم ثار على زيادة الله واستولى على القيروان وهما قاضيان فقال لهما : أخرجا عنى اما تعلمان أن هذا البائس يعنى (زيادةالله) ظــلم المسلمين .أما أبو محرز فخالطه رعب وقال له وانهظلم اليهود والنصارى . أما أسد بن الفرات فأنه ملك جأشه وآثر أن يقول كلمة حق عن أن يسكت أمام صوله باطل . فقال له كنتم أعوانا له قبل هذاالوقت وانتم وهو على مثل هذا الحال ولما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فذلك يسعنا الوقوف عنه وحده .

وفى عام ٢١٢ خرج ابن الفرات على رأس أسطول متجه صوب صقلية فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف رجل من المجاهدين . ورست السفن فى ثغر (مارز) فى طرف الجزيرة الغربى . ومنها نفذ على رأس جنده إلى شرقى الجزيرة فهزم الروم بعد معركة كبرى وغنم أسلابهم واستولى على عدة حصون داخل الجزيرة ثم حاصر سرقوسه من البحر والبر .

ويروى المؤرخون أن أسد بن الفرات هو الذى عرض نفسه ليخرج مع الجيوش المحاربه فلما وثق زيادة الله من صدق عزيمته أذن له بالخروج على أن يكون أمير الجيش فى هذه الغزوه . وقد أبقى له اسم القضاء فأصبح قاضياً أميراً ولم يجتمع الإمارة لأحد فى أفريقيا إلا لأسد وحده شأنه فى ذلك شأن يحى ابن اكثم حين كان يخرج بالصائفة إلى أرض الروم ومنذر بن سعيد قاضى الأمويين بالاندلس .

غير أن القدر لم يمهل هذا القاضى الفاتح من أن يتم رسالته فقد استشهد على اثر ذلك وقد رآه بعض المعاصرين له وفى يده اللواء فحملوا عليه فقال للناس مشيراً إلى جيش العدو قائلا هؤلاء عجم الساحل . هؤلاء عبيدكم . لاتهابوهم وحمل اللواء وحمل الناس معه فانهزم خصومه فلما انصرف أسدرؤى والدم قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت أبطه . وقد كان على ثقة من انه سيكسر جيش الروم مهما بلغ من الكثرة . .

وروى انه لما اشتد به الجوع واضطر هو وجنودة إلى أكل لحوم الخيل سعى إليه بعض من طلب منه العودة إلى أفريقيا فغضب وقال : ما كنت لا كسر غزوه على المسلمين . وفى المسلمين خير كثير . ثم مضى فى عزمته ففتح أكثر البلاد حتى استشهد فى سرقسطه .

وتعطى وقائع حياة أسد بن الفرات صورة رائعة لشخصيته هذا القاضى الذى أحب العلم وشغف به ففتح له باب المجد . وآمن بالجهاد حتى وهب نفسه له

واندفع يطلب الاشتراك فى الحملة المتجهه إلى صقلية وهو سن الستين فوكل اليه الحاكم قيادة الحملة فأبلى بلاء حسنا ومضى يجاهد فى عزم وأصرار حتى ذلت له الصعاب وتأكد له الظفر واستشهد وهو يحمل العلم والدم بسيل منه لايبالى حتى لايسقط اللواء من يده .

وقد وصف نفسه عندما ولى أمارة الحرب بقوله « والله يا معشر الناس ما ولى لى أب ولا أحد ولاية قط وما رأى أحد من سلفى مثل هذا قط وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فاجهدوا أنفسكم واتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه وأصبروا على شدته .

* * *

قطرى بن الفجاءة قائد وفارس وخطيب وشاعر . من ابرز فرسان الخوارج . وقدكان صورة حية للفارس العربى . ولاة الخوارج أمرتهم فى سن الشباب وكان فى موضع بين البحرين وعمان وكان على رأس الازارقة الذين يمثلون الجانب الأعنف من حركة الخوارج . وعاش رمزاً على الاستماته فى سبيل الفكرة والاستهانة بالموت .

وقد رشحه لهذا المنصب قوه عارضته وشخصيته المهيبه واستماته فى سبيل فكرته فظل ثمان سنوات متوالية يكافح ويناضل فى قوة معتصما بأراضى كرمان . حتى لقد لقى مصعب والحجاج من الولاة عنتا لأحد له من يقظة قطرى وبسالته .

وكان يؤمن بفلسفة التضحيه فعاش هازئاً بالدنيا وما فيها . وأتاح له هذا القدرة فى التغلب على الأخطار وكان محبا عاشقا يصوره عاطفته فى قوله :

لعمرك انى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم الق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم

لعمرك إنى يوم الطعم وجبها على نائبات الدهر جد لئيم

وقد جمع الفروسية إلى الحب . ولعله الحب هو الذى كان يدفعه إلى الكفاح على هذه الصورة وله فى تصوير الموت شعر رائع .

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فأنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى

وفى احدى معاركه أصيب بجرح بالغ ووقف يتلهف على شربة ماء وكان ذلك ختام حياة قضاها فى كفاح لا يعرف الراحة . وصراع لا يعرف السلام .

* * *

الظاهر بيبرس هذا الحاكم الذى ولى أمر مصر فترة من الزمان تبهر فى فيه مواقفه الحربية فقد شهد معارك الصلبين فى دمياط والمنصوره وفارسكور وقتل الكونت دارتو أخو الملك لويس . وشهد خاتمة الدولة الأيوبية .

وقد أبدى الشجاعة وهو ليس من رجال الصف الأول ولا الثانى حتى بهر الناس .. وقد عمل مع « قطز » فى تحطيم صولة التتار وتمزيق جبهتهم المكتسحة التى لم تقف أمامها دولة منذ خرجت من أواسط الصين . وكان موقفه فى عين جالوت رائعاً باهرا . فاليه يرجع الفضل فى ترجيح كفة النصر وهو الذى قتل كتبغاً قائد التتار مما أدى إلى اضطراب صفوفهم وتقهقرهم .

وتولى الملك بعد مقتل قطز .فحمل لواء الجهاد متاسيا بصلاح الدين

فقاتل الاسماعيلية وشتت شملهم وقام بحملة على الشام لتطهيرها من التتار . ومضى يحارب بقوة وإيمان حتى قضى على التتار والاسماعيلية جميعا بعد أن تعاونوا عليه

وقد حاصر قيسارية حتى سلمت له . وفض أرسوف على أهلها . وقتل ملك أرمنيا الذى كان عونا على المسلمين وانتزع يافا وانطاكيه ودك قلاع الصليبين قلعة قلعة وحصنا حصنا . وفى الموصل قذف بفرسانه فى مياه الفرات عابرا النهر إلى الاسماعيلية .

وكانت حياته جهادا جبارا ونصرا مؤزرا فقد وضع خاتمة ساحقه لخصوم الشرق والاسلام إذ دحرهم وصفى موقفهم بصفة نهائية .

مواقف بطولة

لاعلام الاسلام

ليس من الضروري أن تكون حياة البطل كلها مواقف خالدة حتى يستحق أن يكون من الأعلام بل أن موقفا واحداً من المواقف البارعة قد يكتب اسمه في سجل الخلود .

ومن أبرز هذه المواقف موقف أبو بكر الحازم إزاء الرده . حين وقف يدافع عن رأيه وجل الصحابه لا يوافقون ... حتى عمر لم يؤيد رأى الصديق ....

قال له عمر .. كيف تقاتل الناس والرسول يقول : أمرت أن أقاتل حتى يقولوا لا اله إلا الله محمد رسول الله . فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم .

فقال أبو بكر : أليس قد قال الا بحقها ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم ....وخرج أبو بكر وحده . .

قال عمر فو الله إلا أن رأيت أن أشرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .. والله لقد رجح إيمان أبى بكر بايمان هذه الأمة ... فى قتال أهل الرده وبعث أحد عشر جيشا فى يوم واحد وقال لقادة الجيوش ..

كلما انيتم قوما من المرتدين فاذنوا علیهم فان أجابوكم فاسألوهم فان أجابوكم فدعوهم فى سلام .

* * *

ومن أبرز مواقف عمر عام الرماده ... عندما أصاب القحط وأهلك الناس .. لقد ربط الحجر على بطنه ، ووقف يصارع الموت فى رجوله وقوة

وبدا فأرسل ولاته إلى الأمصار يطلب منها المدد والقوت والمعونة . ويلح فى إرسال الدقيق والحبوب وأنواع الطعام والكساء ...

وكان خطابه لايزيد عن هذه الكلمات ، أما بعد افتراني هالكا ومن قبلى وتعيش أنت ومن قبلك فياعوثاه وياعوثاه .. وياغوثاه .

وأعطى أبو عبيده أربعة آلاف راحلة من الطعام وقال له أخرج بها إلى نجد وقال له أرسل إلى المدينة أهل كل اقليم . ومن لم يستطع فاعط أهل كل بيت منهم بعيراً بما عليه من الطعام .

وقدمت وفود القرى والقبائل إلى المدينة حتى غصت بهم وأخذ الخليفة يوزع الطعام على الجائعين .

وفى كل موعد طعام يحمل على ظهره جرابين من الدقيق وكبة سمن ويناوبه مع خادمه أسلم ويدور على الناس فيوزع عليهم حتى ينتهى ثم يعود ويحمل غيرها

ويخرج إلى القضاء ويأخذ معه العباس .. ويخالف رداءه ويدعو الله :
اللهم لا تهلكنا بالسنين وأرفع عنا البلاء .

قال أسلم كنا نقول لو لم يرفع لظننا أن عمر يموت هما بامر المسلمين وقيل كان يتعشى عنده كل ليلة أربعون ألفا من الرجال والنساء والصبيان وحلف عمر لا يزوقن السمن ولا اللحم حتى يخصب الناس . وبقى كل ليلة يأكل الخبز حتى أسود لونه . . .

ومن قوله فى هذه الأزمة : بئس الوالى أنا إذا إذا أكلت طيبها واطعمت الناس كراديسها . .

فاذا مضينا إلى عمر بن عبد العزيز وجدنا موقفاً رائعاً هو موقف المجادلة مع الخوارج .

فقد أرسل لهم كتابا قال فيه :

بلغني أنك خرجت غضبا لله ودينه ولست أولى بذلك فهلم أناظرك فان كان الحق بايدينا دخلت فيما دخل فيه الناس .... وإن كان فى يدك نظرنا في أمرنا .

فأرسل له بسطام رجلان يدارسانه ويناظرانه .

عمر — ما أخرجكم هذا المخرج وما الذى نقمتم .

— ما نقمنا سيرتك وأنك لتتحرى العدل والإحسان فاخبرنا عن مقامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشوره أم ابتززتم أمرهم .

عمر — ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها . وعهدا لى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وانتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصاف فاتركونى ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم .

— بيني وبينك أمر واحد — رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فان كنت على هدى وهم على ضلاله فالعنهم وابرأ منهم .

عمر — قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا وكنكم أردتم الآخرة فاخطأتم طريقها إن الله يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا ... وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها فان قلتم أنها فريضة فاخبرنى أيها المتكلم متى لعنت فرعون .

— ما أذكر متى لعنته .

عمر — افيسعك أن لعنت فرعون وهو أخبث الخبائث وشرهم ولا يسعنى إلا أن العن بيتى وهم مصلون صائمون .

— فابرا مما خالف عملك ورد أحكامهم .

عمر — أخبرنى عن أبى بكر وعمر اليسا على حق .

— بلى

عمر — اتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الرده سفك دماءهم وسبى الذرارى وأخذ الأموال .

— بلى

عمر — اتعلم أنه رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية .

— نعم

— فهل برىء عمر من أبى بكر .

— لا

— افتبراون انتم من واحد منهما .

— لا

— فاخبرونى عن أهل « النهروان » وهم أسلافكم . هل تعلمون أن أهل الكوفة خرجوا إليهم فكفوا عنهم أيديهم ولم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا ...

فلما خرج إليهم أهل البصرة استعرضوا فقتلوهم . وعرضوا لعبدان بن خباب صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته وهى حامل ثم صبحوا حيا من العرب فقتلوا الرجال والنساء والولدان حتى يلقون الأطفال فى القدور وهى تفربهم

— قد كان ذلك .

ــ فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة أو أهل البصره من أهل الكوفة

ــ لا

ــ فهل تبراءون انتم من طائفة منهما

ــ لا

قال عمر ــ افيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعنى بزعمكم إلا البراءة من أهل بيتى والدين واحد . فأتقوا الله فأنكم جهال تقبلون من الناس مارد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من خان عنده ويخان عندكم من امن عنده .

ــ ما نحن بذلك

ــ بلى تقرون به الآن . أفلستم انتم اليوم تبراون ممن يخلع الأوثان ومن شهد ان لا اله إلا الله من عزه ورسوله . وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه بينما يأمن عندكم أهـــل سائر الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم .

ــ قال أحدهم .

ما أحسن ما قلت وما أحسن ماوصفت ولكن كرهت أن افتات على المسلمين بأمر لا أدرس ما حجتهم فيه حتى أرجع اليهم فلعل عنـــدهم حجة لا أعرفها .

أما الثانى فقال :

ما رأيت حجة ولا أقرب مااخذاً من حجتك . أما أنا فاشهدانك على الحق برىء من خالفك.

ومن صور البطولة محاكمة خالد . وموقفه الرائع فى التسليم لعمر . وقبول قضائه فى عزله وقسمة ماله دون أن يثير ذلك فى نفسه ثائرة الانتقام .

* * *

وفى ميدان العلم نجد بطولات رائعة ، فى صورة هؤلاء الأفذاذ من الرجال الذين كانوا لا يملكون وقوت يومهم وقد اندفعوا فى حماسة يذهبون إلى أطراف الأرض فى سبيل العلم والثقافة .

وهذا الامام الشافعى مثل بارز على هذه العزيمة الماضية ، لقد ولد رضى الله عنه فقيرا ، فلما أسلموه إلى المكتب ما كان أهله يجدون أجر المعلم ، إلا وأن الشافعى رأى أن يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجر الذى يطمع فيه

قال الشافعى ولما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء وأحفظ الحديث وكان منزلنا بمكة فى شعب الخنيف وكنت فقيرا بحيث لا أملك ما اشترى به القراطيس فكنت أخذ العظام واكتب فيه حتى ملأت حجرة كبيرة بهذه العظام . ثم صرت على نفسى عاما كاملا لحفظت ما كتبت على هذه العظام عن ظهر قلب .

وقال فى ذلك شعرا :

علمى معى أينما يممت ينفعنى قلبى وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت فى البيت كان فيه معى وإن كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وبلغ الشافعى من العلم مبلغاً كبيراً حتى روى انه كان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة . فاذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء اهل الأدب والعروض والشعر والنحو متى ينتصف النهار ثم ينصرف .

وقصة الإمام البخارى من اروع قصص طلب العلم والجهاد فى سبيل تحقيقه فقد قضى مطلع شبابه من سن السابعة عشرة إلى سن الأربعين وهو يسافر وينتقل ليتلقى الحديث عن العلماء والرجال وكان السفر غاية فى المشقة والاجتهاد فى ذلك الوقت .

رحل إلى فارس ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر .. فجمع ستون الف حديث واستمع إلى اكثر من الف شيخ من الذين يحفظون الحديث يجد مع الواحد منهم حديثا او حديثين ثم سجل كل هـذا وعاد فقارن بينه ودرس قوة الرجال الذين يوثق بعلمهم والرجال الضعفاء وهكذا يقول عمر بن حفص الأشقر فانهم افتقدوه يوما فلم يجدوه ، فاذا هو قد نفـــد ماله وتقطعت ملابسه ، وليس معه ثوب للخروج . فالبسوه واخرجوه .

وقصة الغزالى التى رواها فى كتابه المنقذ من الضلال ، هى مثـل الجهاد العلماء فى شبابهم فى سبيل استيعاب العلم ، وقد كانت سن الغزالى عند ما وقعت له هذه الحادثة لايتجاوز ٢٢ سنة يقول .

قطعت علينا الطريق ، واخذ العيارون جميع ما معى فتعقبتهم فالتفت إلى مقدمهم وقال ارجع ويحك وإلا هلـكت ..

فقلت له اسائك بالذى ترجو السلامة منه من على تعليقتى فقط ، فما هى شىء تنتفعون به فقال لى وما هى تعليقتك فقلت كتب فى تلك المخلاه هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علومها فضحك وقال كيف عرفت علمها وقد اخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم .

ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاه فتركت تلك الحادثة فى نفسى أثراً كبيرا وقلت فى نفسى . هـذا مستطنق أنطقه الله ليرشدنى إلى امرى ، فلما وافيت طوس اقبلت على الاشتغلال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى .

أما ابن تيمية فقد قضى حياته جميعها طالما ، سجن أكثر من عشر مرات فى قلعة دمشق وفى حارة الديلم بالقاهرة وفى برج الاسكندرية .

وكان فى كل مرة يحمل معه أوراقه وكتبه إلى سجنه وقد أمضى أيام السجن جميعها يقرأ ويدرس فتاوى الأحكام .

وكان أبو بحر الجاحظ كلفا بالمكتب والدراسة والقراءة وقد روى أنه مات بوقوع مجلدات من الكتب عليه وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به وهو جالس بينها ، وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته .

وكان الفتح بن خاقان من كبار رجال دار الخلافة ، يحضر لمجالسة الخليفة المتوكل فاذا خرج الخليفة لأمر إخراج كتابا من كمه أو خفه وطفق يقرأ فيه حتى يعود .

وكان ابن حريز الطبرى المؤرخ المعروف يكتب كل يوم ٤٠ ورقة ، وقد زعموا ما كتبه على أيام عمره منذ أول شبابه إلى ان مات فخص اليوم ١٤ ورقة

* * *

ومن الأعلام سعيد بن المسيب الصلب الرأى الذى رفض أن يبايع عبد الملك بن مروان . فأراد الخليفة أن يكسب مودته فطلب ابنته لولى العهد « الوليد » . . ورفض دعوة عبد الملك وزوجها لطالب فقير من حلقته هو اسمه « أبو ودعة » لم يكن يملك الا درهمين .. وكان لذلك ضجة كبرى .

وحقد عبد الملك على سعيد واسخطه . .

وأرسل عبد الملك يطلب بيعة أهل المدينة . ورفض سعيد أن يبايع . فلما علم كتب للوالى يقول : أعرضه على السيف فان مضى فاجلده خمسين جلده وطف به أسواق المدينة .

وقال له والى المدينة : أجلس فى بيتك ولاتخرج للصلاه .

قال سعيد : فأنا اسمع الاذان فوق اذنى : حى على الصلاة .. ولا اجيب والله ما أنا فاعل .

ولما رفض ضربه هشام ضربا مبرحا فى يوم بارد . وصب عليه المـاء . وطافوا به فى السوق ..

وعندما زار سليمان بن عبد الملك المدينة وكانوا قد زادوا فى بناء المسجد صرف الناس من إلا سعيد فقد ظل قائما فى مجلسه فى الصف الأول . وخشى والى المدينة أن يراه سليمان .. ولكن الخليفة سعى إليه .

. . .

ومن المواقف المشرقة . موقف المأمون من الهاشمية التى نادت باسمه « وامعتصماه » فقد نقض الروم الصلح وهاجموا أرض المسلمين فى آسيا الصغرى واشتد الأمر بالمسلمين .. حتى وقعت أمراه هاشميه من المسلمات فى الأسر وسيقت إلى سوق الرقيق يتخطفهن جند الروم . ويتندر بهن جهالهم ..وخافت أن يشتريها رومي وتيسراها . .

فلما برح بها الألم صاحت « وامعتصماه » فلما بلغ الخبر المأمون . قال لبيك لبيك .. النفير النفير . وقيل قام من سريره ولم يجلس . .

وسار إلى أرض الروم فى اثنى عشر ألف فرس أبلق وحاصر المعتصم عمورية حصاراً شديداً . فى زمهرير الشتاء خمسة وخمسين يوما . . . ثم اقتحم أسوارها وشد عليها ودكها واشعل فيها النار . .

وأرسل فى طلب الجارية وقال لها هل أجابك المعتصم ..

* * *

وروى عن ابن تيميه أنه ركب من دمشق إلى مصر على ظهر فرس ، فوصلها فى بضعة أيام يستصرخها على التتار ثم عاد بعد أن جيشها وتقدم صفوف القتال

وطلب عبد الحميد بن يحيى الكاتب وكان صديقا لابن المقفع ففاجأهما الطلب وهما فى بيت . فقال الذين دخلوا عليها : أيكما عبد الحميد . فقال كل واحد منهما أنا، خوفا من أن ينال صاحبه مكروه .

* * *

ومن مواقف [illegible] علام الإسلام صور متعددة تجل عن الوصف . أبرزها الصمود فى الباس والكفاح فى سبيل العلم وأية ذلك ابن حنبل والبخارى وابن تيميه فقد جاهدوا الظلمة من الخلفاء وذوى السلطان. وكتبوا صفحات حديدة من الاجتهاد فى سبيل نقاء العقيدة .

وحينما توالت الكوارث على الشرق كان نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس من الأبطال الاشاوس الدين جالدوا الخصم حتى هزموه وأجلوه . وقد سجل لهم التاريخ مواقف مشرفه رائعة .

ولا يكفى أن نتحدث عن حفنة من الأعلام فان هناك الأعلام فان هناك الأعلام المجهولين الذين لم يذكر التاريخ اسمهم الذين قاموا بدور خطير فى سبيل النصر والظفر ومن هؤلاء صاحب النقب.

ومن هؤلاء المجهولين تكون ذلك الجيش الضخم الذى فتح البلاد وكون الحضارة وقد عرف بروح الايمان . وكان هذا الايمان عميقا فى نفوسهم يدفع إلى الجهاد والنضال . لقد اعتنقوا الإسلام فامدهم بروح من البذل والتضحية واندفعوا فى غمار الجهاد مستهين بالمصاعب . مستمتين فى الحرب ، حريصين على الموت والاستشهاد فى سبيل المبدأ والغاية .

وبهذا الروح اندفع هولاء الجنود المجهولين فى شبه الجزيرة حتى دانت

الاسلام ثم اندفعوا فى أنحاء الجزيرة . ومن أطراف الجزيرة اندفعوا شرقاً وشمالا يغزون الروم وفارس . فدانت لهم وخضعت .... وخاص الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض إلى حدود القسطنطنية للعرب . ثم لم يلبثوا أن خاصوا مصر والمغرب والآندلس من الظلم والعسف وردوها إلى عدالى الإسلام ومن شباب المسلمين ، العرب والمصريين والمغاربة . والبربر . فتحت الهند وما وراء النهر وجنوب فرنسا وايطاليا ودكت حصوص القسطنطينة .

ومضى المسلمون ينتصرون فى كل مكان فى اليرموك ودمشق واجنادين ، وفتحوا حصن بابليون وأسوار الإسكندريه . . طبرستان وخراسان وبلاد الجزر وأرمنيه وامتد الفتح إلى السند . وإلى ماوراء البرانس وإلى تولوز وليبون وتور .

واستشهد من المسلمين فى هذه المواقع رجال مجهولين . . وجاهد المسلمون فى سقوط بغداد ونهاية الأندلس فقتلوا وجردوا من أموالهم وأوطانهم . وهم الذين وقفوا أمام الصلبين فى بيت المقدس والمنصورةودمياط . وهزموا ملوك أوربا وأقيالها . وهم الذين دوخوا التتار فى عين جالوت وسحقوا قوات لويس فى المنصورة .

وهم الذين وصلوا إلى أسوار فينا . وإلى نهر اللوار .

وبسيوفهم ورماحهم وأرواحهم فتحت الأرض ودانت أطرافها وخلصت الاسلام ، وبأقلامهم وعقولهم كتبوا صفحات خالده من الأدب والفقه والعلم والشعر ، وبأيديهم وأدواتهم وأزواقهم ، خلدوا تلك الايات البينات من الفن والحضاره والعمرآن ممثلة فى المساجد والمدن والقصور .

أنها أيدى هؤلاء المغمورين شيدت قصر الخلد فى بغداد . والجامع الأموى فى دمشق والحمراء والزهراء فى الاندلس وتاج محل فى الهند والأزهر فى مصر

وهؤلاء النساخ الذين حفظوا تراث الثقافة العالمى فى الفلسفه والعلم .
وهولاء الصناع الذين أنشأوا مرصد سمرقندوالساعة الدقاقةالتى أهداها الرشيد
لشارلمان .. وهم الذين جاهدوا فى سبيل التنكيل بالزنادقة وقمع الفتن
والتوارث ومقاومة الراوندية والخرمية وبابك والأفشين ومازيار

وهم أولئك الابرار الأطهار الذين عكفوا على الذكر والعبادة من ذوى الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ، انضاء العبادة من القوامين والصوامين

. . .

وقد حفلت صفحات التاريخ الاسلامى ببطولات الشباب أنطوت على صور متعددة لاولئك الذين كسبوا لأوطانهم النصر وأحرزوا والظفر فى ميادين الحرب والعلم وإذا كنا لانستطيع أن نمضى فى سرد هذه الأسماء أو نسجل أعمالها وبطولاتها فلا أقل من أن نذكر نموزجين هما البطلين : صاحب النقب وعيسى الغواص أما صاحب النقب فلا تعرف له صفحات التاريخ أسما ، لأنه كان يطمع فى شىء أكبر من الذكر العابر ، كان يطمع فى رضوان الله وفى جزاءه الحق ، وكان يخشى أن يكون أعلان اسمه مظهراً من مظاهر الفخر والأزدهاء كان جنديا يضع عليه ثوابه وأجره

كان جندياً عادياً فى جيش مسلمة ، لايتميز عن سواه إلا بقلبه المفعم بالإيمان ، فلما وقف العرب ، وطال بهم الوقوف مند أحد الحصون الجبارة على حدود الروم ، وأمل الناس الحصار ، وكان موقع الجيش بعيداً عن مكان الحصن ، أخذ مسلمه أمير الجيش ، ينتدب من الجنود من يعرفه ، أو يثق به ليتقدم لنقب الجدار الذى يحمى الحصن ، وكان كلما تقدم رجل أردته سهام المدافعين . ومات واحد وثان وثالث ورابع ، دون أن يصل أحد منهم إلى الحصن.

ومضى مسلمه ينتدب الجنود ، ومضى الأعداء يصرعون كل من يتقدم وبينا يصل الموقف إلى هذا الحرج ، ومسلمه يندب المسلمين فيتوقفون عن التقدم ، إذا بشاب لا يبدو عليه مظهر البطولة يتقدم على فرسه مندفعا إلى الحصن ، كالشهاب ، فى قوة ومضاء ، لم يبال بالسهام وقد انهالت عليه من كل مكان فما أصابت منـــه ، ومضى الرجل حتى أدرك الحصن وتمكن من أحداث النقب ، واندفع العرب منتصرين

فلما فرغ مسلمه من أمر الفتح ، نادى فى الجيش « اين صاحب النقب » فلم يتقدم أحد ، وتكرر النداء دون مجيب . وألح مسلمه على صاحب النقب أن يتقدم ... وهدد وتوعد بعد أن غرى ومنح

وفجأة ، تقدم رجل ضامر ، إلى خيمة الأمير ، وقال له : صاحب النقب أن دلكم على نفسه ألا تسألوه عن اسمه أو قبيلته أو شيء من أمره ... فاذا اعطيتموه شرطه أظهركم على نفسه فقال الأمير : نعم قال الرجل انا صاحب النقب . . وأدار ظهره وخلف خيمة الأمير واندس فى جموع الجيش .

. . .

أما الشاب عيسى الغواص فقصته من نوع آخر ... كان الاتصال بين المحاضرين فى عكا ، والمحصورين خارجها قد انقطع ، بعد أن ضغط العدو عليهم ضغطا شديدا . . ومن ثم أصبح من العسير ايصال المؤن والذخائر إلى الجماعه المحصورة ، وكان لابد من عبور مسافات طويلة فى المـــاء لتحقيق هذا الغرض

وكان عيسى الغواص ، هو الجندى المجهول الذى كان يستطيع الغوص فى البحر من جانب ، فلا يظهر إلى فى الجانب الاخر ، وكان يشد حول وسطه حزام

بجون يحمل فيه ما يراد نقله من اموال أو رسائل أو غيرها من الاشياء الهامة

وظل عيسى يقوم بهذه المهمة الشاقة مرات ، كانت سفاراته بين الفريقين المحصورين غاية في الاهميه والخطر ، ولم يكن هناك من يستطيع ان يؤدى مثل هذا الواجب فكانت عيون الجميع ترقبه ، وقلوبهم تخفق باسمه .

وذات ليلة أرسل صلاح الدين ثلاثة أكياس فيها ثلاثة الاف جنيه من الذهب نفقة للمحاربين ، وقد حملها عيسى ووصفها في منطقته وحمل الرسائل وغيرها ، وعام قاصداً الطرف الاخر من البحر ، وكان من عادته أن يطلق حمامه زاجلة عندما يدخل عكا ، ووصلت الحمامة مؤذنة بأن عيسى في الطريق غير أن الجنود انتظروا وصوله دون جدوى ، وهنا استشعر القوم أن خطراً قد لحق به في الطريق .

وبعد أيام قذف البحر غريقا هو عيسى الغواص وقد وجدت أكياس الذهب الثلاثة مشدوده على بطنه والرسائل معها وكأنما أراد ان يؤدى الامانة ميتا بعد ان أداها حيا .

